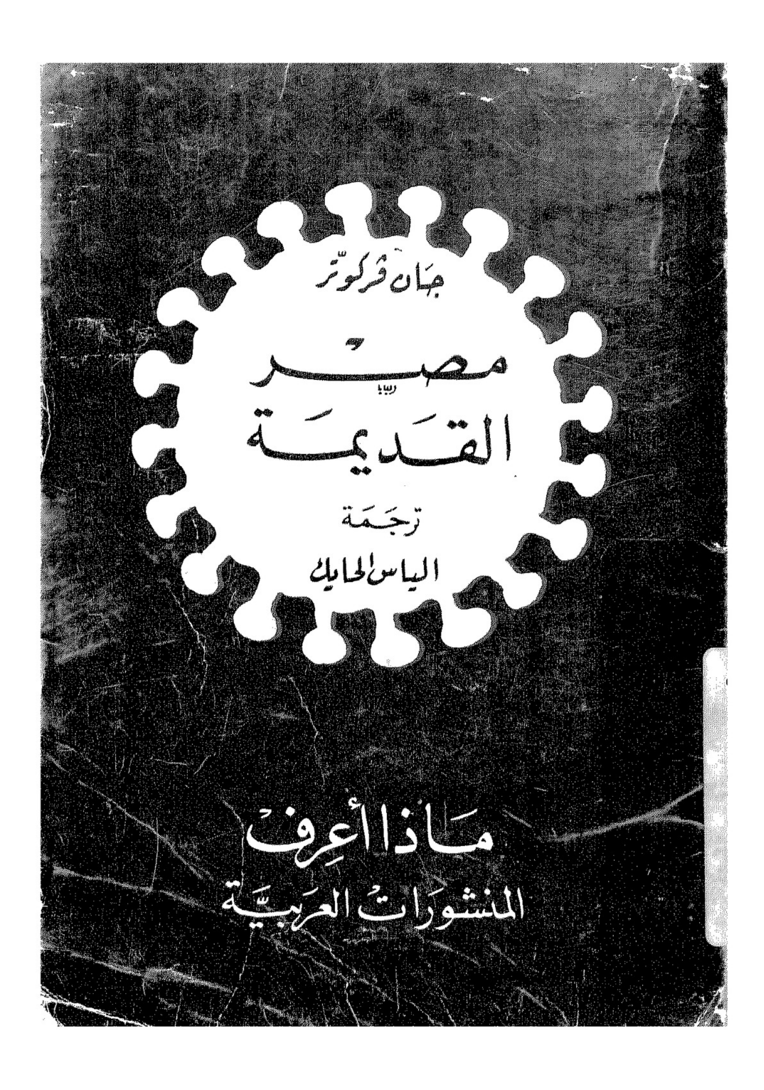


جان فركوتر
مصر القديمة
ترجمة
الياس الحايك
ماذا أعرف
المنشورات العربية

Jean Vercoutter

مصـــر القـديمـة

L'Egypte Ancienne

إهــــــــداء ٢٠٠٦

الدكتورة / ضياء محمود أبو غازي

القاهرة

ماذا أعرف

١٥

جان ڤركوتر

مصر القديمة

ترجمة

الياس الحايك

المنشورات العربية

«Que Sais-je» ?

Presses Universitaires de France

القسم الاول

مصر في الزمان والمكان

١- **مصر ونحن :** في زمن من شأن البحوث العلمية المتنوعة الحافلة بالوعود أن تشغل عقولنا، وفي زمن ترزح فيه أفكارنا تحت وطأة هموم الحياة المادية والقلق من المستقبل قد يبدو من المستغرب ان نهتم بمصر القديمة التي تبعد عنا بعداً شاسعاً في الزمن . فلقد انقضى اكثر من خمسة آلاف سنة على حكم الفراعنة الاولين لمصر الموحدة، واكثر من عشرين قرناً على زوال هذه المدنية . فبماذا يمكن لهذا التاريخ القديم – أقدم تاريخ في العالم – أن يثير اهتمامنا ؟

ان قدم المدنية المصرية هو بحد ذاته جدير بالاهتمام . فلم يكن في مصر فاصل بين حضارات الحجر المصقول والحقبة التاريخية . فالأولى تركت أثرها في الثانية . وعندما ابتدأ تاريخ مصر المكتوب، حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل المسيح ، كانت مصر قد اكتسبت خبرة انسانية طويلة : انها كانت قد حصلت نهائياً على أرضها الزراعية، وكونت عناصر دينها، ورسخت لغتها وكتابتها، ووضعت نظمها الاساسية . وبالواقع فانه يستحيل تأريخ فجر المدنية المصرية الذي يختلط مع ولادة المظهر الانساني لمصر واستيلاء الانسان على وادي النيل . ان مصريي المملكة الجديدة (١٥٠٠ ق . م .) كانوا ما يزالون يتقنون صقل الصوان على الرغم عن وجود البرونز، وكانوا يستعملون في طقوسهم الدينية السكين المصنوعة من الحجر المقطوع او المصقول التي كان يستعملها أهل آخر العصر الحجري المعدني في وادي النيل . وكان كهنة الجنازات يرنمون العبارات ذاتها التي توارثها اجدادهم القدامى شفهياً قبل ان توجد الكتابة . فتاريخ مصر اذن يشكل أطول تجربة انسانية حضارية . فهو يمتد

على الاقل منذ الالف الرابع حتى العهد المسيحي . وخلال هذه الازمنة الطويلة نطق اناس ذاتهم بلغة واحدة وكانت لهم الفكرة ذاتها عن الحياة وعما بعدها وعاشوا في ظل القوانين ذاتها . أو ليس مثيراً والحالة هذه ان ندرس هذه المدنية وان نقارنها بمدنيتنا ؟ بم تغير الانسان (اذا كان قد تغير) منذ تلك الازمنة البعيدة ؟ هل هناك تطور للمدنيات او بالاحرى حياة للمجتمعات كما توجد حياة للافراد : ولادة ونمو ونضج وموت ؟ أمن المحتوم على المدنيات ان تموت ؟ كيف تنشأ، وكيف تنقرض ؟ كلها اسئلة لا تمكن دراسة مصر القديمة من ان تجيب عنها، لكنها تمكن على الاقل من طرحها. ودراستها جديرة بأن تشكل احد أسس الدراسات الانسانية الحديثة بقدر ما تشكله دراسة المدنيتين اليونانية والرومانية .

غير ان المدينة المصرية ليست جديرة بالاهتمام من حيث قدمها فحسب، بل من حيث استمرارها ايضاً . ففي اوروبا وفي اميركا تتابعت المدنيات لكنها اختلفت فيما بينها وفصلت بينها فجوات عميقة كالاحتلال الروماني للعالم السلتي، والغزوات الكبرى التي تعرض لها العالم الروماني ، والاحتلال الاسباني للاميركتين الوسطى والجنوبية . وفي كل مرة كان مبدأ المدنية ذاته يطرح من جديد على بساط البحث، والمجتمعات البشرية التي كانت تعود وتتكون بعد الانقلابات لم تكن مشابهة لتلك التي سبقتها . أما في مصر فلم يحدث شيء من ذلك . فمنذ العصر الحجري الحديث حتى السيطرة الفارسية والفتح المكدوني نرى المدنية المصرية تمر امامنا بشكل منحن متسق . لقد بولغ ولا شك في تقدير اهمية ظاهرة شكلتها حضارة عظيمة نشأت ونمت في اناء مغلق كما كان يسود الاعتقاد . فلقد حدثت فعلا تسللات أجنبية وتأثيرات خارجية وغزوات، ولكن كل هذه لم تقو على تبديل وجه المدينة المصرية الاصيل . ان مصر المملكة الوسطى هي الحفيدة الشرعية لمصر المملكة القديمة، والعالم المصري بعد غزو الهكسوس بقي مصرياً كما كان دائماً . واهم سبب لهذا الاستمرار، الذي يدهشنا اذا ما فكرنا بطول مدته ، يرجع إلى أن المدنية المصرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمجموعة جغرافية هي وادي النيل . فمهما قيل او ظن في المدنية فانها لم تستورد إلى مصر بل ولدت في الوادي ذاته، وهي في الاساس مدنية نيلية وافريقية . وهذا ما اعطاها قوة كبيرة، فهي بالفعل منسجمة بصورة وثيقة مع الاطار الجغرافي الذي انبثقت عنه واسهمت بدورها

في تكوينه . لذلك نرى ان الغزاة الذين تورطوا في وادي النيل في ازمنة الضعف والفوضى كانوا يتمصرون بسرعة او يقذف بهم إلى الخارج ان لم يقدروا على تكييف انفسهم مع ضرورات البلاد . ان استمرار المدنية في مصر مفيد بنوع خاص لتفهم التاريخ العالمي ؛ فهو لا يلقي نوراً على الحياة القديمة في القارة الافريقية فحسب، بل يمكننا من ان ندرس بعض الثورات التقنية والاخلاقية التي أثرت في حياة الانسانية القديمة ونؤرخها . فمنذ اكتشاف المعادن وتقدم الزراعة وتربية المواشي وفنون البناء والحياكة والري، ومنذ اختراع دفة المراكب ومنفخ الحدادة واستعمال الجواد حتى ظهور التقدم الخلقي في الديانة الوثنية وظهور المسيحية، نجد في مصر اثراً لجميع الاحداث الكبيرة منها والصغيرة التي تركت معالمها في تطور العالم الشرقي الكلاسيكي القديم .

واخيراً فمصر لا تثير فضولنا بقدمها وباستمرار تاريخها فحسب، بل انها تبلغ الشمول بفتنة انسانيتها، اذ ان اقدم مدنية في العالم هي أيضاً من اكثرها كمالا. وما يزال حتى يومنا هذا ثمة ميل إلى اعتبار المدنية المصرية غريبة في اطوارها متحجرة في جمود من اللامبالاة واللاانسانية . غير انها، بعكس ذلك، تسترعي اهتمامنا لعمق انسانيتها . فقد حاولت مصر ان تجد الحلول لجميع المشكلات التي طالما شغلت بال الانسان . وخلال الاربعة آلاف سنة من تاريخها اعترتها جميع المحن التي يمكن ان تحل في مجتمع انساني : فقد عرفت حروباً اهلية وفوضى ومجاعات وغزوات اجنبية ونزاعات دينية، انها قاست كل شيء: الاضطرابات الاجتماعية والاضطرابات الدينية والتردد بين الايمان والشك. وقامت بجميع المحاولات لتتخلص من المصير الانساني المحتوم، وارتجفت جزعاً امام الموت وحاولت ان تسيطر عليه . وقد تبدو لنا محاولتها هذه صبيانية اليوم، غير اننا نرجع عن هذا الرأي، اذا ما نظرنا إلى العظمة الساحقة في ابنيتها وإلى جمود آلهة الموت عندها .

ان المأساة الإنسانية التي يمثلها تاريخ مصر تفرض معرفة هذا التاريخ . وهو تاريخ مكتوب على ابنية من جميع الانواع حفظها مناخ مصر حتى ايامنا هذه . وبأكثر من الفي عام قبل اليونانيين مجد الفن المصري الانسان وعمله وآلامه وافراحه . وقد ترك لنا النحاتون المصريون وجوه ملوكهم بمظاهر العظمة تارة، وتارة بمظاهر الصفاء، وطوراً بمظاهر الآلام والمأساة، مما يبين الى اي حد تمكن هؤلاء النحاتون من ملاحظة الانسان وتفهمه. وهذه الوجوه هي

شواهد على مأساة الانسان المسيطر على عمله او الرازح تحته او غير الجدير به . ولم يلاحظ المصريون الانسان فحسب بل لاحظوا كل ما يحيط به : فالحيوانات اللبونة والطيور والاسماك والنباتات تحيا كلها في الفن المصري . ومع ان الادب المصري هو افقر بكثير من الادب اليوناني فانه لا يخلو من دواعي الاهتمام . فلقد توصل ان يجد تعابير لم تزل تبدو فاتنة رغم طول الازمنة التي تفصلنا عنه . وبذا فان مصر بفضل فنها قد زادت بغنى تراث البشرية جمعاء وقامت في التاريخ العام بدور لا يجوز الحط من قدره . وإن كانت مصر لم تأخذ نسبياً إلا القليل فإنها بالعكس اعطت كثيرا . ومن الممكن ان يكون ما نسميه بالعالم الكلاسيكي لم يتوصل إلى ما صار اليه لو ان مصر القديمة لم تعرف ان تقتلع الاشواك من دروب الحضارة . ومن الصعب ان نتبين إلى أي مدى اثرت مصر على المدنية اليونانية الناشئة . انما مما لا شك فيه انها اثرت في نموها: وان هيرودوتس بصورة خاصة لم يهمل الاشارة إلى هذا الامر .

٢ ــ **التعرّف إلى مصر** : ان اقدم مدنية في العالم هي ايضاً من احدثها بالنسبة إلى معرفتنا لها . فقد اعيد اكتشافها منذ قرن ونيف، مما يدل إلى مدى حداثة علم المصريات . ان اللغة المصرية لم تعرف معرفة كافية الا منذ زهاء خمسين عاماً . ولذا فان حقل علم المصريات ليس معروفاً على حد سواء ولم نزل بعد في حقبة الاستكشاف . فالحفريات تجري بصورة منظمة كل عام وتأتينا بوثائق جديدة، والآثار المجمعة سابقاً تنشر تباعاً . وطالما ان جميع المصادر التاريخية لم تعرف كلها فانه يمكننا ان نتوقع دائماً ظهور معلومات جديدة . ولكن حصيلة المعلومات المتوفرة حتى الآن كافية لتمكننا من ان نرسم تاريخ المدنية المصرية بخطوطه العريضة .

ولولا اكتشافات جان فرنسوا شامبوليون (١٧٩٠ ــ ١٨٣٢) واضع علم المصريات لما كانت هذه الصورة ممكنة.

ومن احدى النتائج المدهشة للمغامرات النابوليونية انها وجهت الانتباه إلى الشرق الادنى المصري. ويمكن القول، بدون مبالغة، ان اعادة اكتشاف مصر القديمة يرجع إلى سنة ١٨٠٩ حين نشر اعضاء حملة ١٧٩٨ الافرنسية كتاب «وصف مصر». ان هذا العمل المثير للاعجاب اعطى مواد جديدة في الوقت الذي كانت فيه الحركة الرومانطيقية تبعث الاهتمام بالماضي والاهتمام بالشرق. وليس مجرد صدفة ان يكون ده لاكروا وبيرون ولامارتين معاصرين لشامبوليون وان يستهويهم الشرق مثلما استهواه. وطبعاً لم يكف ان تكون الظروف موآتية، ولم يكف ان يكون علماء البعثة الافرنسية إلى مصر قد جمعوا، بصبر طويل وبعمل جدير بالاعجاب، جميع العناصر الضرورية لهذا الاكتشاف، بل ان الامر كان يستوجب فوق ذلك العبقرية. وكان شامبوليون يملك هذه الشرارة اللازمة. فانه منذ صغره كان مولعاً بمصر. وكان ينهل بشغف كل ما يمكن ان يروى به غليله لمعرفة تاريخ مصر. واهلته دراسته الكلاسيكية لاستطلاع المصادر اليونانية واللاتينية، وبجده المتواصل اضاف اليها معلومات خاصة رآها مفيدة: ففي القرن الثامن عشر برهن الراهب الجزويتي الاب كيرشر عن ان اللغة المصرية الكلاسيكية تقمصت نوعاً بالقبطية وهي لغة كان الرهبان المصريون ما يزالون يتكلمونها في أيامه. فقد درس شامبوليون القبطية واضاف اليها درس العربية والعبرية: ولكي يصبح

مكياله عارماً درس السريانية والحبشية والكلدانية . وبذلك اصبح قادراً على مجابهة المعضلة الرئيسية معضلة حل رموز الهيروغليف .

وقد كان احد ضباط بونابرت قد اكتشف في الدلتا حجراً بركانياً اسود نقش عليه نص بثلاث كتابات مختلفة . ويعرف هذا الحجر باسم البلد الذي اكتشف فيه: روزيت (الرشيد) وقد نُشر في كتاب « وصف مصر » فاهتم العلماء به فوراً نظراً لاهميته . ذلك لان احدى الكتابات الثلاث، اليونانية، كانت معروفة وانبأت عن مرسوم اصدره بطلماوس الخامس الملقب بالشهير . وكانت احدى الكتابتين الباقيتين مكونة من علامات شكلية هي ذات العلامات التي كان يمكن مشاهدتها على الابنية المتبقية، وتعرف الكتابة منذ اكليمنضوس الاسكندراني بالهيروغليف . اما الكتابة الثالثة فقد كانت تختلف كثيراً ولم تكن بدون وجه شبه مع العربية . وكان لا بد انها الديموتيكية تلك الكتابة السهلة التي كانت تستعمل في الوثائق الشعبية . ورأى العلماء فوراً وبحق ان النصين الهيروغليفي والديموتيكي ليسا سوى ترجمة النص اليوناني . وبدت المشكلة سهلة : امامنا نص معروف مترجم إلى لغة مجهولة، علينا ان نحل رموز هذه اللغة اي ان نكتشف مواقع الكلمات ومعانيها ووظائفها النحوية. ولكن امهر العلماء آنذاك فشلوا ازاء ما بدى سهلاً للغاية . وكل ما توصل اليه اكيربالد وسيلفستر ده ساسي هو انهما حددا في النص

الديموتيكي موقع اسم بطلماوس. كما وفق يونغ الطبيب والفيزيائي الانكليزي الشهير الى تحديد موقع هذا الاسم في النص الهيروغليفي.

وقد كان شامبوليون يتابع بشغف بحوث هؤلاء العلماء. والواقع ان ما اوقفهم كانت قضية الاسلوب. فهل المصرية كتابة رمزية تشير العلامة فيها إلى فكرة، ام كتابة صوتية تشير فيها إلى مقطع صوتي؟ وهل هي ابجدية ام مقطعية؟ وتردد شامبوليون طويلا. ثم اكتشف اولا ان الاحرف الجامدة وحدها كانت تكتب بينما الاحرف الصوتية كانت تهمل مثلما كان الامر في العبرية وفي العربية القديمة. ثم لاحظ فجأة ان النص الهيروغليفي يتضمن عدداً من العلامات يفوق بكثير ما يتضمنه النص اليوناني. ففهم انه بالنظر لهذه الكثرة من العلامات لا بد من ان تكون المصرية كتابة رمزية وصوتية في آن واحد. وبتعبير آخر فان الكتابة المصرية تتضمن علامات تقرأ واخرى لا تقرأ وظيفتها تحديد معنى الكلمة فقط. وبتطبيق اكتشافه توصل اولا إلى قراءة كل اسماء الملوك اليونانيين المترجمين إلى المصرية ثم وجه اهتمامه نحو الكلمات المصرية ذاتها. وبفضل معرفته للقبطية قرأ على بناء آخر الاسم الشهير «رعمسيس» وتوصل ايضاً الى ان يفهم معناه «الاله الشمس». لقد خطا شامبوليون الخطوة الحاسمة. انه فهم الهيروغليف (١٨٢٢) ومنذ ذلك وبنشاط لا مثيل له تناول كل نص مصري وصل اليه وكان في كل

مرة يتغلب على جميع الصعوبات . وفي سنة ١٨٣٢ أي عشرة اعوام بعد اكتشافه الاول كان يؤلف غراماطيقا للغة المصرية وباشر بوضع معجم لها . واثناء رحلة قام بها إلى مصر كان قد جمع سلسلة بديعة : « وثائق مصر وبلاد النوبة »، وكان يتأهب ليدرّسها في كوليج دي فرانس عندما توفي في الثانية والاربعين من العمر وقد ارهقه عمله الشاق . ولكي نقدر عمل شامبوليون حق قدره يجب ان نتذكر ما كانت عليه معرفتنا في المصريات قبل حل الرموز . فبعد اغلاق الهياكل المصرية في العصر الرابع بعد المسيح لم يعد احد يقرأ الهيروغليف . ولذا فكل وثيقة مصرية الاصل كانت وثيقة ميتة . وكان يجب علينا ان نكتفي بما كتبه عن مصر الكتاب اليونانيون مثل هيرودوتس وديودروس الصقلي وسترابون وفلوطرخس يضاف اليه بعض المقاطع من آباء الكنيسة مثل اكليمنضوس الاسكندراني واوزيبوس القيصري. ولا يحق التقليل من اهمية المصادر الكلاسيكية، فان احدها كان هاماً بنوع خاص . انه في عهد احد الملوك المسمى بطلماوس كان كاهن مصري يدعى مانيتون قد الف تاريخاً لمصر نزولا عند طلب العاهل اليوناني . ولو أن هذا المؤلف وصل الينا سالماً لكان ثميناً جداً اذ ان مانيتون كان لم يزل يتقن الهيروغليف . وما يؤسف له ان هذا المؤلف فقد ولم تصل الينا منه سوى نتف اوردها مؤلفون مختلفون منهم : المؤرّخ اليهودي يوسيفوس واليوناني سكستوس يوليوس الذي

لخصه اوزيبوس القيصري، وحتى هؤلاء فان ما نعرفه عنهم اخذناه عما جمعه جورج له سينسيل (في النصف الثاني من القرن الثامن بعد المسيح) . وبالصورة التي وصل بها الينا فان مؤلّف مانيتون ليس سوى انعكاس لانعكاس آخر وكل ما انتفعا به منه هو تقسيم تاريخ مصر إلى ثلاثين سلالة . واذا ما جمعت كل هذه المصادر فانها لا تساوي شيئاً يذكر وليس من السهل استعمالها، لانه لم يستق واحد من مؤلفيها معلوماته من ينبوعها فهي كلها مجموعة من الروايات. إن اكتشاف شامبوليون قلب القضية بمجملها . فالوثائق المصرية ذاتها اصبحت بمتناولنا، وصار من الممكن التحقق من المصادر الكلاسيكية واستكمالها . وبذلك عادت مصر إلى الوجود .

وعلى الأسس التي وضعها شامبوليون أصبح من الممكن بناء علم المصريات . ولم يزل هذا البناء يرتفع تحت أعيننا . ان اكتشاف قبر توت غنخ آمون ومدافن تانيس يدل على ان مصر القديمة لم يزل بوسعها ان تأتينا بمفاجآت .

وقبل ان نباشر درس تاريخ هذه المدنية لا بد من وصف البلاد التي نشأت فيها لان معرفة الاطار الطبيعي في مصر ضرورية لمن يرغب في تفهم تاريخ هذه البلاد ومعرفة عادات سكانها .

٣ ــ البلاد : لقد سعى الانسان في كل الازمنة إلى ان يتبين تأثير البيئة الطبيعية في المجتمع البشري الذي تحيط به .

ونحن نرى ان تأثير البيئة الطبيعية واضح في مصر، ولا شك في أن الحضارة المصرية مدينة بجزء من اصالتها الخاصة إلى كون مصر ليست من الوجهة الجغرافية بلد كسائر البلدان.

لقد أثرت ثلاثة عوامل جغرافية على المجتمع المصري:

١ ــ كون مصر واحة؛
٢ ــ مناخها الصحراوي؛
٣ ــ كون طولها يضاهي عشرة اضعاف عرضها.

ان القول بأن مصر هي واحة اصبح قولا مبتذلا. ولكننا نلاحظ كفاية إلى أي حد اثر هذا الواقع الجغرافي في المدنية المصرية. فالواحة ليست مجرد بقعة خضراء في وسط مساحة خضراء كما تعلمنا في الكتب. ان ما يكوّن الواحة هو مجموعة من العوامل المادية والانسانية المترابطة بحيث اذا فقد واحد منها فقدت الواحة. وهذه العوامل في المناخ الصحراوي هي ثلاثة: الماء والتربة الصالحة للزرع وعمل الانسان. والاعجوبة الوحيدة، هي ان النيل يعطي الماء والتربة معا، وكل ما تبقى يعود إلى الانسان.

لا شك في أن مصر هي هبة النيل كما نردد منذ أيام هيرودوتس، لكنها قبل كل شيء خلق انساني. وبذلك فان الاطــار الجغرافي تأثر بالانسان منذ البدء ولولاه لكان ناقصاً، ولكنه بدوره أثر في الانسان، فالواحة ان وجدت تشكل بيئة جغرافية لا بد ان تترك اثرها فيمن يسكنها.

ولنستعرض أولا العوامل الاساسية في تكوين الواحة ثم ندرس تأثير الحياة فيها على المجتمع الانساني المصري .

الماء ــ ان الحياة بأسرها في الواحة مرتبطة بقضية الماء وفي مصر فانها مرتبطة بالنيل وبفيضانه . والشبكة البالغة التعقد التي يشكلها النيل لم تعرف الا منذ زمن قريب . ويكفي هنا القول بأن النهر الذي يولد في البحيرات الكبرى الاستوائية تغذيه الامطار الاستوائية التي تهطل بانتظام على مدار السنة .

ثم تأتي الامطار الموسمية التي تهطل في الحبشة فتحدث تلك الظاهرة التي ادهشت العالم القديم ألا وهي فيضان النيل . ان مياه الفيضان تنطلق من المناطق الاستوائية عند منتصف شهر حزيران، وبسبب المسافة الشاسعة فانها لا تصل إلى مصر الا في تموز . ومنذ ذاك تزداد هذه المياه وما تنفك لان الامطار في الحبشة تصل إلى حدها الاعلى ما بين حزيران وتشرين الاول . ان فيضان النيل اذن هو فيضان صيفي، وهذ ما له الاهمية الاولى في بلد ذي مناخ صحراوي حيث ترتفع درجات الحرارة فتبلغ اعلى حدودها المطلقة واعلى معدلاتها ابان شهري تموز وآب . فتغمر المياه ارض مصر اذن في البرهة التي تكاد الشمس فيها تجفف كل شيء . وفي الشتاء تكفي مياه النهر المنخفضة والعادية لتسقي المزروعات ريا بواسطة طرق متنوعة لرفع الماء .

التربة ــ والنيل لا يجلب الماء فحسب . ان مياه الفيضان تحمل معها غريناً تجرفه من الاراضي البركانية في الحبشة العليا

وبفضل بطء سير المياه في مصر يرسب هذا الغرين على الحقول التي يغطيها ويرسب معه الدبال فيخصبان ارض مصر لدرجة انها تغلّ مرتين او ثلاث مرات في السنة الواحدة. ولذا فان المصريين ألهوا هذا الفيضان الذي كان يعطيهم الماء والتربة معاً، ونظموا الاناشيد تكريماً لهذا الاله هابي: «السلام لك يا هابي، اخرج في هذه الارض واقبل لتهب مصر الحياة، انت الذي تخبئ مجيئك في الظلمات (ان المصريين كانوا يجهلون ينابيع النيل) ... تغمر الحدائق ... لتعطي الحياة كل ظمئان، منذ قيامه تصيح الارض صيحات الابتهاج كل بطن يفرح، كل ظهر يهتز ضحكا، كل ضرس يهرس»

البشر ــ قلنا ان الماء والتربة لا يكفيان لخلق الواحة، بل يجب ايضاً وجود الانسان. وقد تأمن وجود الانسان منذ ان أصبح وادي النيل قابلا للسكنى. ان جفاف الصحراء لم يتم دفعة واحدة بل تدريجياً. ورافق هذا الجفاف التدريجي انسحاب السكان الذين كانوا يعيشون فيها وتجمعهم حول مناهل المياه وخصوصاً قرب النيل وأمنوا بذلك للوادي دفقاً متواصلاً من السكان. وهؤلاء هم الذين كانوا ما يزالون يشكلون قاعدة سكان مصر في الاعصر التاريخية.

وبذلك ومنذ اقدم حقبات التاريخ الانساني كانت لمصر العناصر الاساسية لحياة واحيّة مزدهرة. وهذه الحياة ذات الخصائص المحددة اثرت بدورها على المجتمع البشري. يدهشنا استقرار الشعب المصري «الأقل ثوروية في العالم»

ان هذه الخاصة ليست وهماً (اذا فكرنا ان النظام السياسي المصري قد استقر اكثر من اربعة آلاف سنة) وقد عززتها ضرورة وجود حكم سياسي قوي ليؤمن الري . فلكي يكون فيضان النيل نافعاً يجب طبعاً أن لا يكون غزيراً جداً وان لا يكون شحيحاً، ويجب قبل كل شيء ان يحسن توزيع مياهه .

ان توزيع المياه هو المعضلة الاساسية في كل واحة، وهو يستوجب في مصر بناء سدود واقنية ري وحواجز وان يصان كل هذا صيانة جيدة . ولا يؤمن هذه الصيانة الا حكم مركزي قوي يعرف ان يفرضها في جميع الاقاليم . وبذلك فان كل النظام السياسي المصري يرتكز على ضرورة مادية وجغرافية ليس لها ما يعادلها في مجتمعاتنا الغربية. إن واحدة من أقدم تصاوير الملك المصري التي نعرفها تمثل العاهل يحفر قناة . والماء كانت موضوع اهتمام سكان وادي النيل الدائم . وعلى احدى اولى اللوائح الملكية التي لدينا ـ وهي نوع من تقويم تاريخي للاحداث التي جرت في كل ملك ـ نرى تجاه الحدث الرئيسي لكل عام ذكراً لارتفاع مياه الفيضان في تلك السنة ، وعلى هذا لارتفاع كانت تتوقف الحياة في البلاد بأسرها . ومن الممكن ان الضرائب كانت تحسب على اساس هذا الفيضان . وهذا مثل رائع لتأثير الواقع الجغرافي على الحياة الادارية في مجتمع انساني . لكن تأثير الجغرافيا لم يتوقف عند هذا الحد، ويمكن القول ان الماء كان هاجس المدنية المصرية. والماء كان التقدمة الفضلى التي تقدم للاموات.

وفي تلك الرسائل الغريبة التي كان الاحياء يرسلون بها إلى الاموات كانوا يهددونهم بالتوقف عن صبّ الماء لهم ان هم لم يستجيبوا دعاء الاحياء. وفي احد النصوص الجغرافية صنفت البلدان المختلفة حسب الماء الذي يشربه سكانها : مياه النيل، مياه الآبار ، مياه السواقي أو مياه الأمطار . وفي نص آخر يميز كاتب مصري اربعة انواع من الآبار . ان هذه الخصائص تدل على ان المصريين تأثروا بصفتهم شعب واحة في حياتهم الادارية، وفي افكارهم الدينية، وفي اوصافهم، وفي لغتهم (ان في اللغة المصرية اكثر من عشرين تعبيراً لوصف اوجه النيل المختلفة) . وصفتهم هذه هي التي جعلتهم يقدرون ثمن الارض الزراعية . وكانوا يسمّون بلادهم الارض السوداء، ليميزوها عن الصحراء الحمراء. وقد كانوا يبنون قراهم على ارض الصحراء ليوفروا الارض الزراعية الثمينة عندما لم يتمكنوا من بنائها على مرتفعات لا يغمرها الفيضان. أن مصر هي بلد مساكن متجمعة وهذا التجمع كان نتيجة ضرورة جغرافية اذ انه كان يجب تجنب الفيضان وتوفير اكثر ما يمكن من الارض الزراعية.

ان المدنية التي تأثرت بكون مصر واحة تأثرت ايضاً وبالتأكيد بالمناخ لأن لمناخ مصر خصائص فريدة . فهو بجوهره مناخ صحراوي (باستثناء شاطئ الدلتا البحري) . ان هطول الامطار يكاد يكون معدوماً (المعدل السنوي ٣٣ مليمتراً) ، والرياح هي مجففة كرياح الصحارى المحيطة

(باستثناء الرياح الشمالية) ، ودرجة الحرارة اليومية تتميز بفارق كبير بين حرارة النهار وحرارة الليل، وفي الشتاء تبلغ هذه الفوارق ١٥ و ١٦ درجة . ونتيجة لهذا المناخ في بلد يكاد لا يهطل فيه المطر وحيث يبلغ معدل الحرارة السنوية فيه ٢٠ درجة فوق الصفر، كان من الضروري ان يكون للانسان مأوى، مما جعل للبناء اهميته منذ فجر التاريخ المصري .

وبالاضافة إلى هذا العامل الذي يجب ان يعتبر ثانوياً، اذ ان كل مناخ في العالم يخضع الانسان لبعض الموجبات، كنا نود التعمق في معرفة تأثير المناخ الصحراوي على الانسان المصري . ومن المؤسف ان دراسة هذه المشكلات في البيولوجية الانسانية ما تزال في أول عهدها . فان بعض البحوث الحديثة في تأثير الرياح والرطوبة والكهرباء الجوية على جسم الانسان تبين ان للمناخ دوراً اساسياً في تكوين مجتمع انساني وفي تطوره . ان التأثيرات الاكيدة التي كانت للمناخ المصري على رجل وادي النيل هي جديرة بالدرس، وقد تكون في هذه الدراسة منفعة للمؤرخ بقدر ما فيها منفعة للعالم الاحيائي .

واخيراً فان المدنية في مصر قد اتسمت اتساماً عميقاً بشكل البلاد الجغرافي المدهش . ان مصر هي اشبه بقسطل طويل ولين له في أحد طرفيه رأس مرشة . وهذا ما يفسر كون سكان بلد غريب كهذا قد ميزوا فوراً القسطل اي مصر العليا من رأس المرشة وهي مصر السفلى . ان الاراضي الزراعية

لا تبلغ عرضاً واتساعاً يذكران الا في الدلتا . اما في سائر انحاء البلاد فعرض الوادي لا يزيد عن بضعة كيلومترات . ان مصر التي يبلغ طولها الفي كيلومتر ليس فيها اكثر من ثلاثين ألف كيلومتر مربعاً من الاراضي الصالحة للزراعة، وقد أثر هذا الوضع الغريب في الحياة الادارية والسياسية في البلاد. اننا قد اشرنا سابقاً إلى أن ضرورات الري وضرورات التنظيم الاقتصادي تستوجب التوجيه نحو التوحيد ونحو الاستقرار، وقد لاحظ نابوليون ذلك . غير أن شكل البلاد يعمل باتجاه معاكس ويميل بها نحو التقسيم ونحو تفتت السلطة . وفي الواقع ليس في هذا الشريط الطويل من طريق سوى النيل . ويصعب جداً على عاهل ان يراقب بجدوى سلطة محلية تبعد احياناً اكثر من الف كيلومتر عن العاصمة، والتي لم يكن الوصول اليها ممكناً، في عصر لم يكن الجواد فيه معروفاً، الا بعد أيام طويلة من السفر على الماء . ولذلك فانه عندما كانت السلطة المركزية تضعف كان حكام الاقاليم ينقلبون فوراً إلى طغاة صغار . فتاريخ مصر تأرجح بين الميل إلى التركيز السياسي الذي كانت تستوجبه الضرورات الحيوية في البلاد والميل إلى التفتت الذي كان يسهله طول البلاد المفرط، ومن هنا ايضاً نشأت اهمية الاقليم في حياة مصر، فان بعد الاقليم الشاسع عن المركز الاداري فرض عليه ان يتمكن من الاعتماد على نفسه في الحياة . ان مصر بسبب الضرورات الطبيعية هي في آن واحد دولة ذات مركزية

سياسية قوية ولامركزية ادارية . ومن النتائج الثانوية لهذا الوضع كان تقدم مصر السريع في فن الملاحة . ولما لم يكن لمصر الا الطريق النهري فقد حملها ذلك على استعمال المراكب بصورة متواصلة حتّى للعبور من ضفة إلى أخرى . ويمكن القول ايضاً ان الديانة تأثرت بهذه الضرورة الطبيعية ، فقد كان المصريون يعتقدون ان الشمس تعبر السماء في زورق وكانت لهذه الضرورة اثرها حتّى في الحقل التقني ، فقد اخترع المصريون دفة المركب المركزة على محور ، غير ان العربة ذات العجلات اتتهم من الخارج .

واخيراً فان مصر بموقعها في اقصى شرقي القارة الافريقية كانت نقطة التلاقي بين العالم الاسيوي والمتوسطي والعالم الافريقي . ان هذا الموقع الذي لم تستثمر امكاناته الا في العصر الحديث (بعد فتح قناة السويس وبعد ان اصبح وادي النيل والبحر الاحمر طريقي مرور نحو افريقيا الجنوبية والوسطى ونحو الشرق الاقصى) بدأ يؤثر في حياة مصر السياسية منذ زمن الفراعنة . فقد قضى شكل البلاد المستطيل من الوجهتين السياسية والادارية بأن يكون موقع العاصمة في وسطه تقريباً حتّى تمتد السلطة الملكية إلى الوادي بأسره . ومنذ العهد الثيني، ولربما منذ عصر ما قبل التاريخ ، كان هذا المركز الحيوي في ناحية منفيس (قريباً من القاهرة) حيث كان يمكن للسلطة الملكية ان تراقب الدلتا والوادي الاعلى في آن واحد . ولئن جعل فراعنة المملكة الحديثة عاصمتهم في طيبة

فلكي يقتربوا من بلاد النوبة التي كانت قد شملتها مصر والتي كانت تمدهم بالرجال والمواد الاولية الضرورية لسياسة التوسع التي انتهجوها . انما المصيبة هي ان طيبة كانت بعيدة عن الدلتا . فمنذ زمن المملكة الحديثة بدأت مصر تشعر بمحاذير كونها مفترق طرق العالم . ان الممالك الاسيوية كانت في أوج توسعها واصطدمت بمصر... وبعد ذلك بقليل بدأت الموجة الهندية ــ الاوروبية الثانية زحفها من الشمال إلى الجنوب ووصلت هي ايضاً الى الشاطئ المصري، وبذلك اصبحت مصر مهددة من ناحيتين على جبهتها المتوسطة . ولكي تدافع عن نفسها أرغمت على حشد قواتها في الدلتا . ونشهد منذ عهد السلالة التاسعة عشرة وخصوصاً منذ عهد السلالة العشرين انتقال مركز الثقل نحو الدلتا . ويمكن القول ان انحطاط مصر الذي دام طويلا والذي بدأ منذ ذلك الزمن يرجع سببه إلى انها لم تستطع ان تعيد تنظيمها الداخلي . كانت الظروف تقضي بأن يقترب المركز السياسي بقدر الامكان من المتوسط الذي اصبح مفترق طرق العالم القديم، وكانت تقضي ايضاً بان تكون مصر حاضرة فيه بجميع قواتها اي بجميع الموارد التي كانت تستمدها من افريقيا . ولئن أدرك الفراعنة ضرورة تمركزهم في الدلتا فانهم لم يتمكنوا من الابقاء على وحدة البلاد التي كانت وحدها تؤهلهم للقيام بالدور الفعال في العالم الجديد الذي كان ينشأ أمام أعينهم . وهكذا فان ظرفاً جغرافياً أي وجود مصر في

العالم المتوسطي جعل من الضرورة وجود العاصمة أقرب ما يمكن إلى الشمال، وظرفاً جغرافياً آخر أي الطول المفرط للبلاد منع الفراعنة المتمركزين في الدلتا من أن يحكموا البلاد بطريقة فعالة ولا سيما من ان يحكموا ممتلاكاتهم الافريقية التي كانت مصدر قوتهم. ولما اقتصرت مصر على وجهها المتوسطي لم يبق لها سوى دور ثانوي في تاريخ العالم القديم. ولذلك فان العالم المصري الحافل بالتناقضات، حيث ابرز جفاف الصحراء خصب الوادي وحيث حال طول البلاد الشاسع دون تحقيق الوحدة التي تفرضها ضرورات الحياة، شكل اطارا مميزاً للمجتمع الذي سيولد ويزدهر فيه ثم ينقرض. وقد لمس هيرودتس هذا الامر لمس اليد عندما كتب في مطلع تاريخه: « ان المصريين الذين يعيشون في مناخ فريد، وعلى ضفاف نهر له ميزات تختلف عن سائر الانهر اعتمدوا ايضاً، في كل شيء، عادات وتقاليد تختلف عن عادات سائر الناس وتقاليدهم ».

٤ ـ **السكّان** : لقد سكن الانسان وادي النيل منذ العصر الحجري القديم، اي منذ اقدم ما نستطيع الوصول اليه من عصور ما قبل تاريخ الانسانية، لكنه تستحيل علينا معرفة العرق الذي ينتمي اليه هؤلاء السكان الاولون (لم تكتشف بعد هياكل عظيمة تعود إلى هذه الحقبة)، ولا يمكننا ايضاً ان نعرف ما اذا كان هذا العرق قد اندمج بالذين احتلوا وادي النيل في أول العصر الحجري الحديث. اننا نستبعد

ذلك، وفي كل حال فان العناصر القليلة التي بقيت منه قد ذابت في جماعات القادمين الجدد. والواقع هو أن بدء العصر الحجري الحديث يوافق حقبة جفاف المناخ في افريقيا الشمالية والشرقية، والقبائل التي كانت ما تزال تائهة في السباسب الصحراوية راحت تغادرها وتتجمع حول مناهل الماء. ولا ريب في أن إعمار مصر الحقيقي يعود إلى تلك الحقبة، ويمكننا ان نتصور انه طالما تم بهذه الطريقة فانه لم يكن متجانساً وانه لا يمكن اعتبار سكان مصر عرقاً صافياً في أيّ من الازمنة. يبقى ان اكثرية هؤلاء السكان من حيث الاصل بالذات هي افريقية. ويبدو ان العنصر المتفوق كان دائماً حاميّاً اي انه ينتمي إلى الشعوب الاخرى في افريقيا الشمالية والشرقية، كشعوب البدجا في افريقيا الشرقية والبربر في ليبيا الذين ينتمي اليهم الطوارق والقبيل الحاليون. ولكن هذا العرق الحاميّ ذاته لم يبق صافياً اذ لا شك في أن عناصر سامية امتزجت به باكراً قادمة من الشمال عن طريق شبه جزيرة سيناء او على الارجح من الجنوب عن طريق البحر الاحمر والصحراء العربية. وقد كان في السابق ميل لتضخيم هذه الاضافة السامية التي ما لبثت في الواقع ان ذابت في الكثرة الحاميّة. ويجب ان نذكر ايضاً بضعة اضافات نوبية وهذه ايضاً لم تكن ذات شأن. فمنذ عصر المملكة القديمة كان السكان اذن يتألفون من أكثرية حاميّة تسللت اليها بعض عناصر سامية ونوبية. ولن يتغيروا قط خلال الآلاف من السنين، وليس

من النادر أن نجد اليوم بين الفلاحين النمط المصري القديم . ويمكن القول اذن ان الشعب المصري هو بمجمله افريقيا، وافريقيا ابيض اذ ان العناصر السامية من جهة وشبه الزنجية من جهة اخرى التي تمكنت من التسلل اليه لم تكن يوماً كافية لتغير مظهره. ويصعب تحديد عدد سكان مصر القديمة ان لم يكن ذلك مستحيلا . وبالاستناد إلى وثائق يونانية يتفق بصورة عامة تقدير هذا العدد بسبعة ملايين نسمة تقريباً . ويجب اعتبار هذا العدد حداً اقصى ونعلم ان مصر عرفت خلال تاريخها ازمنة تكاثر فيها السكان وتميزت بتأسيس مدن جديدة، وازمنة تضاءل فيها عدد السكان . ومهما يكن من امر فان مصر بعدد سكانها القليل نسبياً تنتمي إلى المدنيات الاخرى من العالم الكلاسيكي القديم . ولكننا سنرى ان هذه القلة في عدد السكان ستكون نقطة ضعف مثقلة لمصر عندما ستواجه التكتلات الاسيوية الغفيرة .

٥ ــ **اللغة والكتابة** : فيما عدا الملامح العرقية المادية تصنف الشعوب بلغتها . فما هو اصل اللغة المصرية ؟ وقد تناقش الاختصاصيون طويلا فيما بينهم ليقرروا ما اذا كانت هذه اللغة من اصل سامي او افريقي، وحتى انهم تساءلوا عمّا اذا لم تكن من اصل اوقياني ! ومن المتفق عليه اليوم بصورة عامة ان المصرية والكوشيتية (اللغات السودانية) ، والبربرية واللغات السامية تشكل خمس فئات من اللغات مستقل في الواقع بعضها عن بعض، انما كلها مشتقة من لغة

قديمة واحدة . وهذا ما يفسر أوجه الشبه العديدة التي نلاحظها بين المصرية واللغات السامية وبين البربرية والمصرية . وهذا من شأنه أن يبطل كل ما افترض سابقاً (وخاصة الغزوات) لتفسير اوجه الشبه هذه . وهكذا فالمصري ينتمي إلى سائر شعوب افريقيا البيضاء بلغته كما ينتمي اليها بعرقه .

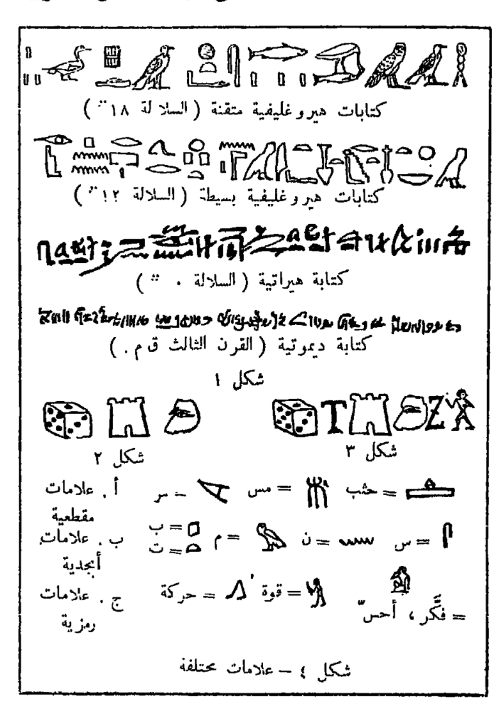
وصلتنا اللغة المصرية عن طريق الكتابة منذ العصر الثيني أي منذ نحو السنة ٣٠٠٠ ق . م . فتكون اذن هذه الكتابة احدى أولى الكتابات الانسانية المعروفة. ومن المفيد ان نقول عنها بعض الشيء . اننا استعرضنا قصة حل الرموز . والاهمية الرئيسية في هذه الكتابة هي انها بدون ريب من انتاج البلاد . ان العلامات الهيروغليفية التي تستعملها ليست مستمدة من الحيوانات والنباتات النيلية فحسب، مما يثبت انها نمت محلياً، ولكنها مستمدة أيضاً من الآلات والمواعين المستعملة في مصر منذ العصر الحجري – المعدني القديم مما يثبت ان هذه الكتابة هي بالفعل ثمرة المدنية المصرية وحدها وانها ولدت على ضفاف النيل . ولقد وصلت الكتابة الينا في ثلاثة اشكال مختلفة: الاول ،ويسمى الهيروغليفية ينحصر استعماله على الابنية دون سواها وهو يبين العلامات واحدة واحدة وبتصوير كامل. فالعصفور مثلا لم يشر اليه برسم جانبي فحسب بل بجميع ملامحه الداخلية كرسم الجانحين والعينين والمخالب الخ ... ويتضح جلياً ان هذه الكتابة كانت تستغرق وقتاً طويلا حتى باختصار الرسم، اذ ان الكلمة الواحدة كانت تتألف من خمس

او ست علامات . ولذلك استعمل المصريون منذ العصور القديمة كتابة مختصرة وسريعة تعرف بالهيرية . ان اكثر النصوص الادبية والادارية والقضائية المصرية وصلتنا بهذه الكتابة . واخيراً في الحقبة الدنيا بسطت الهيرية بدورها واعطت الديموتيكية حيث تطورت العلامات لدرجة انه يستحيل معها تبين الاصل الهيروغليفي . ان دقائق قانونية بالغة الاهمية كتبت بالديموتيكية وهذه الوثائق هي احياناً المصادر الوحيدة التي لدينا لدرس بعض النظم . والجدير بالملاحظة ان الكتابة المصرية هيروغليفية كانت ام هيرية ام ديموتيكية لم تتطور ابداً وبقيت امينة لمبدئها الاصلي . وعلى الرغم من انها كانت تحوي علامات بسيطة فانها لم تصبح ابداً ابجدية مثل الفينيقية واليونانية ولغاتنا العصرية . ان اسلوب الكتابة المصرية هو في الواقع معقد للغاية . ان الاشياء المادية يمكن دائماً تمثيلها بصورة . فلكتابة كلمات مثل « مقذاف » « وقوس » و « محراث » الخ... يكفي تصوير مقذاف، وقوس ومحراث . وهذا ما يسمى بالكتابة التصويرية وقد استعملتها الكتابة المصرية عادياً في كل العصور . ولكن ليس باستطاعة الكتابة التصويرية ان تعبر عن كل شيء، فكيف يمكن مثلا تمثيل اعمال مثل : فتش، ركض، صعد، او كلمات مجردة مثل : فكر، حب الخ ؟ فللتغلب على هذه الصعوبة جزّأ المصريون الكلمات المجردة إلى مقاطع ومثلوا كل مقطع بشيء يشبهه في اللفظ . ولنأخذ مثلا الكلمة الافرنسية

détourner . انه يمكننا تجزئتها إلى ثلاثة مقاطع فنصور « dé » أي زهر النرد و tour اي برج و nez أي أنف . فهذا هو مبدأ الكتابة الهيروغليفية كما استعمل منذ العصر الثيني لكتابة اسماء الاعلام . ولكي تصبح هذه الطريقة قابلة للاستعمال كان يجب اكمالها . فالصورة اذا كان يجب ان تلفظ بصوت يجب الا يترك مجالا للالتباس . فصورة البرج والانف قد تقرأ ان مثلا « قصر » أو « منخر ». فتلافيا لهذه الاخطاء اضاف المصريون امام العلامة المقطعية او بعدها علامة حرفية تعين قرأتها . كما لو كنا نضع قبل صورة البرج حرف ب وقبل صورة الانف حرف ف . واخيراً اكملوا الكلمة بعلامة لا تقرأ ولكنها تعين القراءة، اذ كانت توحي معنى الكلمة بفكرة : كفكرة الحركة او القوة الخ ... ولمتابعة مثلنا نضيف بعد الرسوم صورة رجل يدير برأسه فتوحي فكرة الالتفات التي تتضمنها الكلمة التي كتبناها صوتياً . فالكلمة المصرية تتألف اذن من علامات صوتية كأحرف ابجدية ومن علامات مصورة للفكرة، وهذه ليس عندنا ما يعادلها انما لم تزل تستعمل في الكتابة الصينية .

ومن جهة أخرى فان العلامات الصوتية تتضمن بدورها علامات يمكنها ان تمثل حرفين او ثلاثة احرف جامدة برسم واحد . ان الطريقة الهيروغليفية هي مرنة جداً اذ تسمح بالكتابة من اليمين إلى اليسار او من اليسار إلى اليمين او من تحت إلى فوق . واخيراً فان العلامات المقطعية العديدة جداً (وكان منها

مئات) كانت تسند دائماً بعلامة حرفية او بعلامتين او حتى بثلاث علامات كانت تساعد على قراءتها . لكن المصريين لم



شكل ٤ — علامات مختلفة

يتوصلوا إلى اختراع الكتابة الابجدية كما نعرفها . انهم لم يتخلوا ابدا عن العلامات الفكرية والعلامات المقطعية ليكتشفوا الحروف الابجدية بل بالعكس فانه يبدو انهم ابتعدوا عنها . ان الكتابة المصرية في العصور الدنيا ضاعفت العلامات وخصوصاً المقاطع الفكرية وبذا فانها ابعد بكثير عن الابجدية من كتابة المملكة القديمة التي هي اكثر اعتدالا في استعمال العلامات . واخيراً فان الهيرية والديموتيكية لا تبسطان الكتابة بحذف العلامات التي لا لزوم لها بل بتخطيط اسرع . ومن الوجهة النحوية فان المصرية لغة تتصف بالترتيب الدقيق لمواقع الكلمات : الفعل اولا ثم الفاعل ثم المفعول به واخيراً المفعول معه او المفعول فيه . وليس في اللغة المصرية ما يشابه الاعراب ولكن فيها صعوبة خاصة بها اذ انه ليس فيها ما يقارن باحرف العطف . ولذلك فانه يصعب دائماً تحديد الصلة التي تربط جملة ما بالتي قبلها او بالتي بعدها .

منذ أن فكت رموز الكتابة اصبحت الوثائق المصرية القديمة مفهومة لدينا . وهذه الوثائق هي التي تشكل في يومنا المصادر الرئيسية لتاريخ مصر . وهذه المصادر متعددة جداً . وهي تشمل : قصص حياة مكتوبة بالهيروغليف على مسلات أو على جدران مدافن الافراد، وقصصاً رسمية للحملات الملكية محفورة غالباً على جدران الهياكل، ولوائح ملكية مكتوبة على ورق البردى او منقوشة على الحجر، ونصوصاً ادبيّة او

ادارية مكتوبة بالهيرية على لويحات خشبية او على قطع خزف ، واحياناً تكون هذه المصادر مجرد اسماء مطبوعة على اشياء صغيرة كالتماثيل الصغيرة أو الجعلان . ان مجموع كل هذه الوثائق مكننا من رسم تاريخ مصر الذي سنتناوله الآن .

القسم الثاني

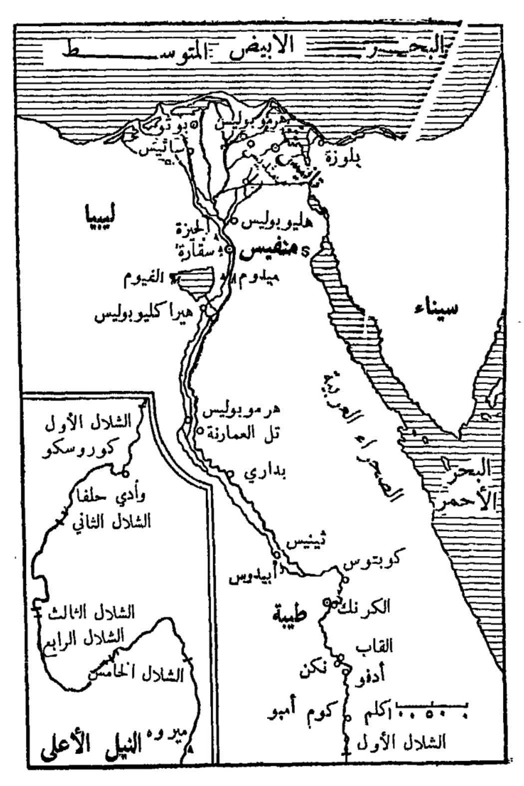
تاريخ مصر

لم يبرز في مصر القديمة مؤرخ يضاهي توسيديدس او تاسيتس او حتى تيتس ليفيوس . وليس حتى الآن ما يحملنا على الظن بوجود مؤرخ من هذا النوع . لذلك ولكي نستوضح تاريخ مصر فاننا مجبرون على الاكتفاء بلوائح اسماء الملوك التي خلفها لنا المصريون وبالابنية المتبقية والآثار التي كشفت عنها اعمال التنقيب . ولدينا قصص تركها الملوك عن اعمالهم، انما ليست لدينا اية قصة تاريخية بالمعنى الحصري الذي نفهمه . ان التاريخ عندما يكتب هكذا يكون قاحلا اذ لا ترد فيه الا اسماء وتواريخ وهذه عناصر هزيلة اذا ما تذكرنا ان التواريخ غير ثابتة وان تسلسل خلافه الملوك ليس اكيدا.

ان العصور المجهولة تماماً او التي تكاد تكون كذلك تمثل ما يقرب من ثلثي تاريخ مصر . ومن السلالات الثلاثين التي يعددها مانيتون ليست لنا المعرفة الكافية الا باحدى عشرة منها . والعصور التي تهمنا معرفتها هي تلك التي حدثت فيها انقلابات وعصور التحول . انما هذه هي بالذات العصور التي نكاد نجهل كل شيء عنها . واذا نسينا هذه النواقص عندما ننظر إلى تاريخ مصر فان نظرتنا تكون مشوهة . فعهود الاستقرار والاشعاع هي النادرة في تاريخ مصر كما هي في تاريخ غيرها من البلدان، بينما ازمنة الاضطراب والفوضى او الخالية من العظمة هي اطولها . وقد تكون هذه الاخيرة هي التي تركت الاثر العميق في الاولى . وان نحن جهلناها اصبحت معرفتنا بعصور الازدهار ناقصة .

منذ مانيتون يصنف المائة والتسعون ملكا الذين حكموا مصر في ثلاثين سلالة . انما كلمة سلالة هنا لا تعني ان الملوك المنتمين اليها منحدرون من جد واحد . وكثيراً ما تخفانا الروابط بين فرعون وخليفته . واخيراً ليست جميع السلالات متساوية بالشأن : فمنها ما هي وهمية كالسلالة السابعة، ومنها ما كانت معاصرة لسلالة أخرى، ومنها ما كانت تتألف من بضعة ملوك وحتى من ملك واحد، ومنها ما حوت اربعة عشر ملكا . ولما كان من العسير استيضاح المعالم بين هذه الكثرة من الملوك الذين لا نعرف عن معظمهم سوى الاسم

فقط فقد قسم تاريخ مصر إلى اربعة عهود كبرى : المملكة القديمة وهي عهد السلالات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة – والمملكة الوسطى ايام السلالتين الحادية عشرة والثانية عشرة – والمملكة الحديثة في عهد السلالات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين – واخيرا العهد الادنى الممتد من السلالة الواحدة والعشرين إلى الفتح اليوناني . اما ازمنة الاضطرابات الكبرى فهي : اولا تلك التي تقع بين المملكة القديمة والمملكة الوسطى حين نشبت ثورات اجتماعية وحروب اهلية وتمتد من آخر عهد السلالة السادسة إلى منتصف عهد السلالة الحادية عشرة وتسمى الحقبة المتوسطة الاولى، وثانياً تلك التي تفصل ما بين المملكة الوسطى والمملكة الحديثة وامتازت بالحروب الاهلية وبالغزو من الخارج وتسمى الحقبة المتوسطة الثانية او عصر الهكسوس وهم الغزاة . اما السلالتان الاولى والثانية فتسمي ايامها العصر الثيني. وقد اخذ هذا الاسم من اسم العاصمة في تلك الايام . ويفصل العصر الثيني على حدة ويدغم مع عصر ما قبل السلالات الذي سبق مباشرة توحيد مصر التاريخي. ويصعب احياناً التمييز ما بين السلالات الاولى وعصر ما قبل السلالات من جهة وعصر ما قبل التاريخ من جهة أخرى . ولا نعرف عن هذه العصور الا ما تبيناه من اشياء وكتابات قصيرة جداً وردت فيها اسماء اعلام لا تنبىء عن شيء يذكر عن تلك العصور .


البحر الابيض المتوسط
بوتو
سائيس
بلوزة
ليبيا
هليوبوليس
الجيزة
سقارة
منفيس
الفيوم
ميدوم
سيناء
هيراكليوبوليس
هرموبوليس
تل العمارنة
بداري
البحر الأحمر
ثينيس
كوبتوس
أبيدوس
الكرنك
طيبة
القاب
نكن
أدفو
كوم أمبو
الشلال الأول
الشلال الأول
كوروسكو
وادي حلفا
الشلال الثاني
الشلال الثالث
الشلال الرابع
الشلال الخامس
ميروه
النيل الأعلى

خريطة مصر

الفصل الأوّل

العصور الغامضة

(عصور ما قبل التاريخ والعصر الثيني)

١ — **التسلسل الزمني** : ان اول مشكلة تجابهنا في درس تلك العصور النائية هي مشكلة التسلسل الزمني . فمتى بدأت بالضبط الحضارة ومتى بدأ التاريخ في مصر ؟ ليست لدينا سوى معلومات قليلة لحل هذه المشكلة . والمصريون لم يستعملوا على ابنيتهم تسلسلا زمنياً موحداً ومتواصلاً كالذي نستعمله نحن، فهم لا يقولون مثلا « في سنة ١٦٢٠ وفي عهد الملك فلان »، بل يقولون « في السنة الرابعة من حكم الملك فلان » . وكانوا يعودون في بدء كل عهد إلى السنة « ١ » . لذلك واذا ما اردنا ان نحدد تاريخ ارتقاء اول ملك نعرفه العرش باستعمالنا الحساب المصري، توجبت علينا معرفة عدد سنين ملك كل واحد من الفراعنة . ونحن لا نعرف بدقة مدة كل ملك وحسب بل اثناء ازمنة الاضطرابات حكم ملوك عدة في آن واحد . فاذا ما جمعنا عدد سنين ملك كل فرعون لن نحصل الا على معلومات مغلوطة . انما شاء حسن الحظ ان المصريين بالاضافة إلى حساب تسلسل زمان الملوك قسموا الزمان إلى فصول واشهر وايام واستعملوا من اجل ذلك

السنة الشمسية (ولم يستعملوا السنة القمرية كباقي الشعوب القديمة) . وكانت هذه السنة تتألف من اثني عشر شهراً في كل شهر منها ثلاثون يوماً يضاف اليها خمسة ايام فتكون السنة ٣٦٥ يوماً . وعلى هذا الاساس بني الحساب الحديث للتسلسل الزمني المصري . ولا شك في ان السنة المصرية كانت في الاصل سنة زراعية كما هو متوقع في بلد يرتبط فيه كل ما في الحياة بنهر النيل . وكان اول يوم في السنة هو اول يوم من ايام فيضان النيل . ومن المعقول ان تحركات النيل كانت وحدها في الاصل اساس حساب السنة المصرية ولكن ما لبث المصريون ان لاحظوا ان يوم بدء الفيضان كان في آن واحد يوم حدوث ظاهرة فلكية . ان النجم سوتيس (المسمى سيريوس في عصرنا) كان يطلع في ذلك اليوم مع شروق الشمس . واعتمدت هذه الظاهرة مع بدء الفيضان لحساب بدء السنة . ومنذ ذلك الحين اصبح يوم رأس السنة المصرية متصفاً بظاهرتين متميزتين، ظاهرة طبيعية فيها شيء من عدم الدقة وهي بدء الفيضان، وظاهرة فلكية وهي طلوع نجم مع شروق الشمس . وبما ان المصريين كانوا يحسبون السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً بينما هي في الواقع ٣٦٥ يوماً وربع اليوم، فقد كانت السنة المصرية تتأخر عن السنة الحقيقية ٢٤ ساعة كل اربع سنوات، وكان لا بد من انقضاء ١٤٦٠ سنة لتعود الظاهرات الثلاث فتحدث في آن واحد يوم رأس السنة المصرية : شروق الشمس وطلوع نجم سوتيس وبدء

الفيضان . وكان يكفي اذن ان يحدد الفلكيون العصريون المرار التي وافق فيها طلوع سوتيس وشروق الشمس معاً في يوم أول تموز (أي يوم بدء الفيضان) تحت خط التوازي في منفيس ، حتى نعرف الزمن الذي وضع فيه المصريون حساب تاريخ اعيادهم الدينية . وقد حدث هذا الاتفاق ثلاث مرات خلال الخمسة آلاف سنة التي سبقت ولادة المسيح : ١ً في سني ١٣٢٥ – ١٣٢٢ في عهد السلالة التاسعة عشرة (وقد سجل الكتبة المصريون هذا الاتفاق) ، ٢ً في سني ٢٧٨٥ – ٢٧٨٢ قبل المسيح قبيل آخر العهد الثيني ، ٣ً واخيراً في سني ٤٢٤٥– ٤٢٤٢ أي في حقبة ما قبل التاريخ . وقد ظن بعضهم أن في نصوص الاهرام تلميحاً إلى السنة الشمسية . انما المؤسف هو ان تاريخ هذه النصوص ليس محدداً بدقة . فمن الممكن ان تكون قديمة جداً ويدل التلميح اذن إلى ان السنة الشمسية كانت معروفة قبل عام ٢٧٨٥ مما يعيد اعتماد التقويم المصري إلى الاتفاق الشمسي – السوتيسي – الفيضاني السابق أي نحو سنة ٤٢٤٥ . ولكن بما اننا لا نعرف هذه النصوص الا من نصوص يعود تاريخها إلى سنة ٢٤٠٠ على أبعد تقدير فمن الممكن ايضاً ان السنة الشمسية المشار اليها كانت قد اعتمدت قبل ذلك بثلاثة قرون اي في سنة ٢٧٨٥ . وكان الاعتقاد شائعاً بأن اعتماد الحساب الشمسي في مصر يعود إلى ما بين عامي ٤٢٤٥ و ٤٢٤٢ قبل المسيح ، ولم تظهر الا من وقت قصير جداً فكرة امكانية اعتماده نحو ٢٧٨٥ فقط .

وقد افادتنا خاصيات التقويم المصري إلى حد بعيد . فمع مرور الزمن كان الفرق يزداد بين السنة الفلكية الصحيحة والسنة التي اعتمدها المصريون، حتى بلغ الاسبوع ثم الشهر ثم الشهرين وقد تبدلت ازمنة الفصول وصار الصيف حسب الحساب الرسمي يقع في الواقع في الشتاء الحقيقي . وقد ادهش الامر الكتبة المصريين ووصلتنا نصوص تذكر الفرق بين طلوع سوتيس مع الشمس وبدء السنة الرسمية (التي كانت ضرورية لتحديد تواريخ الاعياد الدينية الثابتة (وبناء على ملاحظات الكتبة توصل علماء الفلك المصريون إلى تحديد بعض التواريخ بدقة . وبهذه الطريقة توصلوا إلى التثبت من تواريخ عهد الفرعون سيزوستريس الثالث من السلالة الثانية عشرة وعهد الفرعون امنحوتب الاول وتحوتمس الثالث من السلالة الثامنة عشرة .

وبالنتيجة فان الحساب الفلكي مكننا من التثبت من تواريخ حكم ثلاثة فراعنة ومن تحديد الزمن الذي يحتمل ان يكون قد اعتمد فيه التقويم المصري . وبمقارنة التواريخ الفلكية والتواريخ الواردة في لوائح اسماء الملوك (لوائح المؤرخ مانيتون ولوائح الوثائق المصرية)، وسلالات الانساب والموافقات الزمنية مع احداث تاريخ الشعوب المجاورة لمصر توصلنا إلى تحديد بدء التاريخ في مصر عند مطلع القرن الثلاثين قبل المسيح . وهناك طريقة علمية حديثة وهي طريقة الكربون ١٤ أو الراديوكربون وقد مكنت من التأكد بصورة لا

يستهان بها من تواريخ مصر الاكثر قدما . ان اساس هذه، الطريقة هو ان كل جسم حي يحتوي على كمية معينة من الكربون المشع وان هذا النشاط الاشعاعي يتدنى بعد الموت حسب منحنى ثابت تمكن العلماء من حسابه . وبما ان الاشعاع العادي للجسم الحي هو معروف فيكفي لحساب عمر عينة ان تحدد قيمة النشاط الاشعاعي الباقي فيه . وتستعمل لذلك البقايا العضوية كالخشب، والنباتات، والشعر، واللحم، والعظام المحروقة، والصوف الخ... المكتشفة في الحفريات . والمهم في الامر هو الحصول على كمية كافية من المادة العضوية ومعرفة العصر الاثري الذي تعود اليه . وقد وجدت مثل هذه البقايا للمواد في مصر مما مكن من تحديد بعض التواريخ بصورة مطلقة وهي :

الفيّوم ١ (العصر الحجري الحديث) حوالي
٤٣٠٠ قبل المسيح

العمري (العصر الحجري الحديث) حوالي
٣٣٠٠ قبل المسيح

نيغادا الثاني (ما قبل السلالات) حوالي
٣٠٠٠ قبل المسيح

هيماكا (السلالة الاولى) حوالي
٢٩٠٠ قبل المسيح

سنيفرو (السلالة الرابعة) حوالي
٢٨٠٠ قبل المسيح

سيزوستريس الثالث (السلالة الثانية عشرة) حوالي
١٨٠٠ – ١٧٠٠ قبل المسيح.

وقد اكدت التواريخ المحددة بهذه الطريقة التوقيت الذي كان قد اعتمد بناء على التواريخ المبنية على سير النجم سوتيس ان تحديد سنة ٣٠٠٠ قبل المسيح حتى ولو كان قد تأكد بالطرق العصرية يجب الا يخدعنا، فهو تاريخ تقريبي ومصطنع. ان هذه السنة هي سنة بدء شيء ما، انها ليست حتى سنة بدء الكتابة انما هي بالاحرى سنة بدء اولى الوثائق المكتوبة التي نعرفها. ان مدنية مصر في الواقع سابقة لهذه السنة وان نحن لم نجد وثائق مكتوبة تعود إلى قبل سنة ٣٠٠٠ فهذا لا يعني ان مصر لم تكن متمدنة قبل هذا التاريخ. فالمدنية شيء والكتابة شيء آخر، حتى اننا نميل إلى القول بان العصور التي هي حقاً هامة في تاريخ مدنية وادي النيل هي تلك التي انصرمت بين الالف الخامس وسنة ٢٧٨٠ وهي سنة بدء المملكة القديمة. ان اللغة والكتابة والدين والنظم واخيراً وحدة البلاد السياسية تكونت كلها خلال هذه العصور.

ويمكن من هنا تقدير اهمية هذه الحقبة وتقدير المصلحة الكامنة في اتقان معرفتها. ومما يؤسف له ان هذه الحقبة بسبب قدمها هي أكثر الحقبات غموضاً في تاريخ مصر. انما هنالك بعض الوقائع التي تلقي بصيصاً من النور على عصور

التكوين هذه. وقد توفرت هذه الوقائع من نوعين من المصادر: احدها اثرية والاخرى كتابية.

وسنبدأ بالنظر في الاولى وهذه ستمكننا من درس المظاهر المادية لمدنية النيل حتى فجر العهود السلالية. ان ارض مصر ناشفة جداً في الاماكن التي لا يصل الفيضان اليها وهي تحفظ بصورة مدهشة كل ما يدفن فيها. والحفريات المنظمة التي اجريت في اماكن عديدة ولكن بصورة خاصة في مصر العليا كشفت عن الادوات التي استعملها الناس الذين سبقوا مصريي العصور اللاحقة، عصور التاريخ المكتوب.

٢ ــ **العصر الحجري القديم**: يستحيل علينا في حالة معارفنا الحاضرة معرفة الصلة القائمة بين سكان وادي النيل في العصر الحجري القديم وسكان الحقبة اللاحقة. وعلى كل فان احوال الحياة كانت تختلف كثيراً في العصرين، فالمناخ لم يكن واحداً، انما كان أكثر رطوبة وكان بدون شك اقرب إلى المناخ الاستوائي في ايامنا. وكان النيل يغطي كل الوادي، وهو لا يغطي الا نصفه حالياً، مما جعل الانسان يسكن حيث هي الصحراء اليوم. وتدنى المناخ تدريجياً اثناء الحقبة الاخيرة من العصر الحجري القديم واستوى اثناء العصر الحجري الحديث على ما يقارب مناخ ايامنا.

ان جميع مراحل العصر الحجري القديم هي معروفة في مصر. وبهذا يكون الانسان قد سكن وادي النيل في جميع العصور. انما يبدو ان هنالك انفصالا بين الحجري القديم والحجري الحديث، ونتساءل اليوم عما اذا لم يكن الحجري الحديث قد جاء من آسيا. ان الادلة النباتية والحيوانية التي لدينا تشير إلى هذا الاحتمال.

٣ ــ **العصر الحجري الحديث**: ان حفريات السنوات الاخيرة اثبتت وجود مصر حجري حديث صرف في مصر. ان

فن الحجر المصقول والخزف وزراعة الحبوب وتدجين الحيوانات كان موجوداً في مصر قبل استعمال النحاس.

في العصر الحجري الحديث تغير وجه الوادي من جميع نواحيه. فقد اصبح المناخ يقترب باطّراد من المناخ الحالي وتدنى النيل ولم يعد يشغل كل الوادي، واخيراً أهلت مصر نهائياً. ان جفاف الاراضي المتاخمة وتحولها إلى صحراء حصر السكان على الرقعة الضيقة التي تخصبها مياه النيل. ويمكن بحق اعتبار هؤلاء اجداداً مباشرين لمصريي العصور السلالية. ومن المؤكد أنهم لم يكونوا ينتمون إلى عرق واحد بل كانوا نتيجة مزيج من أناس متوسطين كالكوشيين والحاميين ومن أناس شبه زنوج.

ان الحفريات التي اجريت في بعض المواقع انبأتنا عن المدنية الحجرية الحديثة المصرية. ان هذه المواقع المتجمعة على طرف الصحراء تستلفت النظر بالمدافن وببقايا الطبخ معا. ونجد فيها عظام حيوانات داجنة مما يثبت ان تربية المواشي كانت معروفة. ولا سيما نجد فيها حبوب الشعير والقمح وذلك يدل على ان الاستيلاء على أرض الوادي بالزراعة كان قد تم منذ ذلك الحين. ان احتلال المزارعين للارض هو بنظرنا فجر الحضارة في مصر القديمة. وسنرى فيما بعد ان دور الملوك التاريخي قام بضم الاقاليم تحت سلطة اتحادين احدهما في الشمال وفي مصر الوسطى، والثاني في الجنوب وفي الوادي الاعلى ثم بدمج هاتين المملكتين في مملكة واحدة.

ويبقى أن أساس الاتحادين الاولين هو « النوم » (أي الاقليم) وهو كناية عن مجموعة اراضي زراعية حول قاعدة صغيرة .

كانت ادوات المصريين الاولين حجرية . ويتميز الصوان منذ تلك الايام بجمال نحته وهي خاصة سيتميز بها دائماً النحت في مصر . وكان المصريون يعرفون تحويل الحب إلى دقيق وتهيئة الجلود والخياطة وتذرية الحبوب . وكانت لهم منذ ذلك الحين طقوس خاصة لدفن موتاهم . ومجمل القول ان حضارة العصر الحجري الحديث هيأت الحضارة المصرية واعطتها جميع عناصرها المادية .

اننا نعرف مجموعتين من الحضارة الحجرية الحديثة في مصر ، واحدة في الشمال على طرف الدلتا الجنوبي وقرب الفيوم وفي مصر الوسطى ، والثانية في الجنوب في مصر العليا . ومما يلفت النظر انه منذ تلك الايام البعيدة وجد مركزان متميزان للحضارة احدهما في الشمال والآخر في الجنوب . وهذا ما قد يفسر تعلق المصريين اثناء العصور الطويلة بتقسيم بلادهم إلى جزئين .

٤ ـ **العصر الحجري المعدني**: تتميز في أوروبا بوضوح تام الحقبة الحجرية الحديثة عندما كان الانسان لا يستعمل سوى أدوات من الحجر المنحوت والمصقول ، من الحقبة الحجرية المعدنية المتصفة بظهور المعدن ، الذهب اولا ثم النحاس ثم البرونز . ان هذا التمييز في الشرق ولا سيما في

مصر هو غالباً صعب، ففي مواقع حفريات تعود ولا شك إلى الحقبة الحجرية المعدنية لا وجود للمعدن ... ولذلك فلا يجب ان نتصور حصول انقلاب عنيف كان فاصلا بين الحقبتين، كأن يكون غزاة مسلحين بسلاح معدني متفوق قهروا اهل الوادي الاصليين واخضعوهم بعد أن اغرقوا البلاد في الدم واضرموا فيها النار. وفي الواقع لانشعر بانتقال تدريجي من عصر إلى عصر . واذا كان المعدن قد استورد من الخارج فليس ما يدعو الى الافتراض بان هذا الاستيراد قد رافقه غزو . وظهور النحاس لم يغير شيئاً في طرق نحت الصوان الذي بقي قبلا وبعدا الاداة الرئيسية . وقد تم كل شيء كما لو ان اكتشاف المعدن انتشر بطريقة سلمية، وكمّلت الحضارة الحجرية المعدنية عمل الحضارة الحجرية الحديثة . بيد انه بينما يمكن تشبيه العصر الحجري الحديث المصري بالعصر الحجري الحديث الذي شاع في العالم كله، نرى ان مصر في العصر الحجري المعدني اظهرت اصالتها وتميزت باطراد عن المدنيات المجاورة . وعند بلوغه ذروة النمو اندمج العصر الحجري المعدني بحضارة عصور « التاريخ » التي لم تكن إلا نتيجته الاخيرة .

ان علماء تاريخ مصر يميزون حقبات عدة في العصر الحجري المعدني . وفي الواقع يتمم العصر الحجري المعدني العصر الحجري الحديث وله مثله مركزان احدهما في الشمال والآخر في الجنوب ، انما ما يميز العصر الحجري المعدني هو

انه بعد برهة من الزمن اندمج عنصرا الشمال والجنوب معاً وعلى مر الايام انبثقت الحضارة الفرعونية من هذا الاندماج . ولتفسير اندماج الشمال والجنوب قيل انه تم بغزو وتصور البحاثون انهم تبينوا عناصر غريبة في قبور مصر العليا التي يعود تاريخها إلى ما قبل هذا الاندماج . ولكنه لا يستبعد ان تكون هذه العناصر الغريبة حاميّة ايضاً ، وعلى كل حال فان عددها القليل لا يخولنا التكلم عن غزو او فتح . وبذلك فان الوثائق الاثرية تظهر تأثيراً فعالا لمدنية الشمال على مدنية الجنوب ولكنه ليس من المؤكد ان هذا التطور تم بفضل تدخل خارجي . انما ذلك لا يعني انه لم تقم اتصالات مع الشرق ومع الغرب ، اي مع عناصر ليبية واسيوية .

وفي حقبة ما قبل السلالات كان الاندماج بين مراكز التمدن في الشمال والجنوب قد تم . ان مدنية هذه الحقبة متقدمة تقدماً ملموساً على تلك التي كانت في مصر العليا عند بدء العصر الحجري المعدني .

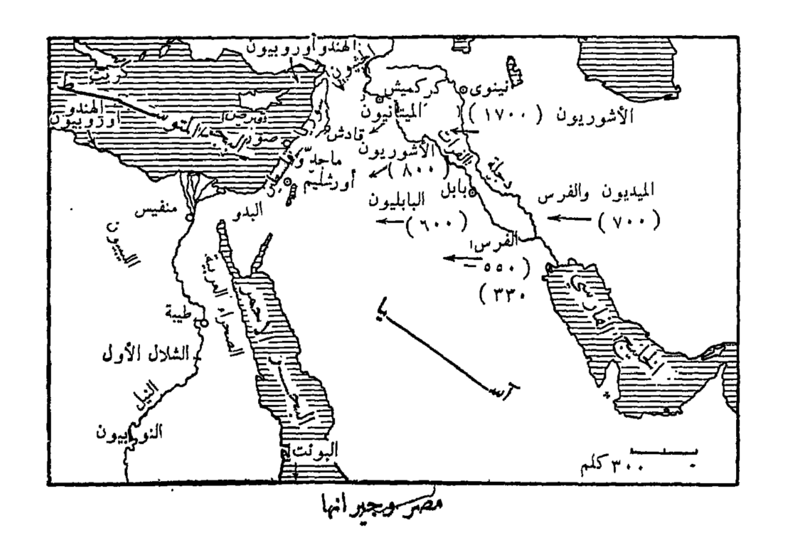
اننا لم نستند في دراسة مدنية العصر الحجري المعدني الا على الوثائق الاثرية . وقد تمكننا بواسطتها من الاطلاع على ما حققته مدنية النيل في حقبة ما قبل التاريخ : ففي العصر الحجري الحديث نجد الزراعة وتربية الحيوانات والحياكة ونحت الحجر ، وفي العصر الحجري المعدني نجد المعدن وفنون البناء ونمو الديانة . ويبقى علينا ان ندرس فئة اخرى من المصادر ، اقل دقة واصعب تفسيراً من الاولى . اننا شددنا في

اول هذا الكتاب على قدم المدنية المصرية وعلى استمرارها . ان هذه المدنية لم تتعرض قط لانقطاع عنيف واحتفظ كل عصر بذكرى العصور التي تقدمته. ونرى انه قد جمعت في العصور التاريخية روايات حول ما جرى في مصر قبل نشأة التاريخ المكتوب وحتى قبل توحيد البلاد . ان هذه النصوص المعروفة بنصوص الاهرام لم تكتب على جدران الاهرام الكبرى في الجيزة بل على جدران اهرام ملوك السلالتين الخامسة والسادسة التي لا تضاهي الاولى بعظمتها . ويبدو ان هذه النصوص تشير إلى احداث حصلت في بدء العصر الحجري المعدني . ولكن ما يؤسف له انها تتعلق جلياً باحداث في الشمال وليس لدينا عنها اية وثائق اثرية ولذلك لا يمكننا التحقق من صحة الوقائع المدونة في نصوص الاهرام بالوثائق الاثرية . وهذه النصوص تنبئنا بأن مصر العليا كانت قبل اندماج الشمال والجنوب مملكة « ست » بينما كانت في الدلتا مجموعة اقاليم غربية مقابل مجموعة اخرى شرقية، وان اوزيريس ملك الشمال وحد المجموعتين ثم هاجم خليفته حوروس مملكة الجنوب وفتحها . وبذلك قامت مملكة موحدة في مصر كلها ولكنها لم تدم طويلا بل سرعان ما انشطرت إلى شطرين : ملك يحكم في مصر العليا في القاب وآخر في مصر السفلى في بوطو . ويعتقد المؤرخ الالماني سيثي ان حساب الزمن الشمسي قد اعتمد خلال حقبة التوحيد الاولى أي حوالي السنة

٤٢٠٠ ق . م . وان العاصمة كانت في هليوبوليس قرب القاهرة .

فاذا صح هذا الافتراض ـ اذ أن الأمر ليس الا افتراضاً ـ يمكن تلخيص تطور حضارة ما قبل التاريخ في مصر على الصورة الآتية : من سنة ٥٠٠٠ إلى سنة ٣٣٠٠ تقريباً حقبة العصر الحجري الحديث وبدء العصر الحجري المعدني عندما كان في مصر مركزان للحضارة أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب. نحو سنة ٣٧٠٠ : ظهور المعدن وبدء توحيد الشمال الذي اكتسح الجنوب في مستهل الألف الرابع . نحو سنة ٣٦٠٠ : خضعت مصر لحكم ملكي موحّد أصله من الشمال وعاصمته هليوبوليس . ثم انحطت هذه المملكة بسرعة وانشطرت إلى شطرين . وقامت في الجنوب مملكة عاصمتها القاب تواجه مملكة في الشمال عاصمتها بوطو . نحو سنة ٣٠٠٠ تغلب ملوك الجنوب على ملوك الشمال وأعاد ملك الجنوب منيس وحدة البلاد . وبدأت منذ ذاك العصور التاريخية .

ان ترتيب الأحداث التي وقعت ما بين سنة ٥٠٠٠ وسنة ٣٠٠ على هذه الصورة قد يبدو مغرياً . وقد أشار مؤرخون عديدون إلى هزال الحجج التاريخية التي بني عليها هذا الترتيب . ولربما مكّنت حفريات المستقبل من القاء ضوء على هذه المشكلات المعقدة .



مصر وجيرانها

٥ ـ نهاية حقبة ما قبل السلالات والحقبة الثينية (٣٣٠٠—٢٧٨٠)

لم يعثر في التاريخ على ما يؤكّد وجود منيس الشهير مؤسس المملكة الفرعونية، وقد يمكن أن يكون ملوك عدة قد حملوا هذا الاسم، انما لدينا وثائق عن الحقبة التي سبقت مباشرة توحيد البلاد. فقد اكتشفت في هيراكونبوليس، التي يبدو أنها كانت عاصمة ملوك الجنوب، انصاب عليها صور تمثل ملكا يدعى سكوربيون يحارب مصريّي الشمال. ويبدو أنّ سلطته امتدت إلى شمالي منفيس وان موحد البلاد الحقيقي هو خليفته نارمر. وقد مثّل هذا الملك في صورة رسمت على لويحة وهو يحارب مصريّي الشمال ايضا، ولكنه كان يحمل شعائر ملك الجنوب وملك الشمال. فيكون اذن ان وحدة البلاد قد تحققت في شخصه. ولذلك تساءل بعضهم عمّا اذا لم يكن هذا الملك هو منيس بالذات.

ولم يعرف الا القليل عن القرون الخمسة التي بدأها حكم نارمر. حتى انه لم يحدد بالضبط موقع العاصمة ثيس التي كانت على الارجح قرب ابيدوس، ولا نعرف ما اذا كانت قبور ملوك السلالة الاولى التي وجدت في مدافن ابيدوس ليست سوى مجرد قبور رمزية.

وتتألف السلالة الاولى من سبعة ملوك او ثمانية (حسبما نعتبر نارمر مؤسّس السلالة أو سلفاً لها) وهم: نارمر، وعحا، وجر، وودجي، ودن، وعج أب، وسمرخت،

وقّع . ان هذه الاسماء الواردة على الأنصاب لا تتفق مع الاسماء الواردة في اللوائح الملكية التي رتّبت فيما بعد، ولا مع الاسماء الواردة في لائحة مانيتون . ولكن ليس علينا ان نهتم هنا للتحقق من صحتها . ان عصر السلالة الأولى كان عصر تطوّر سريع، ومن المؤسف أنّ انعدام الوثائق يحول دون تحليل هذا التطور . انه العصر الذي تكوّنت فيه مصر كما ستظهر في أيام المملكة القديمة . وكان مركز المملكة يميل إلى الاستقرار في جنوبيّ الدلتا، في مكان يقع في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب . ويبدو أن منفيس، التي سوف تصبح عاصمة المملكة القديمة قد تأسست في عهد عحا . وكان هذا العصر أيضاً عصر توسّع المدن، مما يدلّ على أن البلاد كانت في أوج نموها . ومنذ ذلك الزمن بدأت الامة المصرية الناشئة تصطدم باعدائها التقليديّين وهم نوبيّو الجنوب، وسيحاربهم جر بعد عحا ويتوغّل في أراضيهم . ولدينا نصّ يسرد انتصاره منقوش على قمة جبل الشيخ سليمان على بعد خمسة عشر كيلومترا جنوبي وادي حلفا عند مدخل الشلاّل الثاني . وأخيراً فان المدافن النوبيّة المعاصرة للسلالات المصريّة الأولى تشهد بتأثير مصريّ أكيد ان لم يكن باستثمار جزئيّ. وقد وفق الفراعنة التينيون في صدّ الليبيين في الغرب والاسيويّين في الشرق . وقد يكون سمرخت قد اصطدم بالآخرين ابّان حملته في سيناء . واخيراً فان ودجي (الملك الثعبان) وجه حملة إلى الصحراء الشرقية

نحو البحر الأحمر مقابل ادفو . وواصل الملوك هذه الحروب الخارجية الاولى بينما كانوا يتابعون في الوقت نفسه اعمال توطيد السلام الداخلي، اذ يبدو أنّ الشمال لم يتحمل دائماً بخضوع سيادة ملوك من أصل جنوبيّ .

وتضمّ السلالة الثانية سبعة ملوك حسب الأنصاب التي عثر عليها، وتسعة ملوك أو عشرة حسب اللوائح الملكية . ولن نأتي سوى على ذكر الملوك الذين اكتشفت أنصابهم وهم : حوطب سخ موى — ونابري — وناتر أيمو — وعونغ — وسن دج وبرأب سن — وخاسخ حيم — وبخاسخ موى. ولا يتميّز هؤلاء الملوك بأعمالهم عن الملوك السابقين فقد واصلوا الصراع مع النوبيين كما واصلوا توطيد السلام في الشمال . لذلك يمكن دراسة تطوّر مصر التاريخي في عهد السلالتين الأولى والثانية في آن واحد . ويتّسم هذا التطور بتقدم الكتابة وبتنظيم الحكم الملكي. ولا شك في أن هنالك صلة بين الأمرين، اذ ان توسع السلطة الملكية شجع تقدم الكتابة، وتقدّم الكتابة بدوره مهد لتوسّع هذه السلطة . وأصبح الحكم الملكي عندئذ اعلى جانب من القوة مكنه من توجيه حملات خارج مصر . فذهبت الجيوش المصرية إلى سيناء لجلب الحجارة الكريمة وتوغّلت عمقاً في بلاد النوبة وفي الصحراء الشرقية . وأخذت الملكية تتكوّن رويداً رويداً . وقد كنّا نودّ أن نعرف ما اذا كان حكمها مطلقاً منذ ذلك الحين كما أصبح في أيام المملكة القديمة . هل كانت ما تزال للقبائل والقرى حياة

مستقلة ؟ انـّنا لا نعرف شيئاً عن هذا، انما هنالك أمر بارز، وسيبقى هذا الأمر الصفة المميـّزة للملكية المصرية حتّى تاريخ الفتح اليونانيّ، ألا وهو الطابع الدينيّ . ان الفرعون هو اله على الارض . ولذلك فان احتفالات الجلوس على العرش والأعياد الدينية التي كانت تتكاثر في ذلك الوقت كانت ادارية ودينية في آن واحد . ولم يكن ثمة ما يفصل بين ما هو مقدس وما هو مدني، وكان بوسع الموظف كما بوسع الملك نفسه أن يكون كاهناً . ويبدو أن سلك الوظائف أخذ بالنمو في تلك الحقبة . واذا كان تنظيمه تسلسلياً كما يتبين، فلسنا نعرف ما اذا كان تبنّى مبدأ الاختصاص . أما تنظيم البلاد الاقتصادي فقد تابع سيره، ونرى مرتين ملكاً يعنى شخصياً بحفر الاقنية . وعهد بصيانة الاقنية إلى أحد كبار الموظفين، وقد كان هذا بالذات أحد القاب حكّام الاقاليم الذين كانت الادارة المحلية ترتكز عليهم بكليتها . ان تبلور الحضارة المصرية قد تحقـّق اذن في عهد السلالتين الاولى والثانية وكانت العناصر المادية الأساسية لهذه الحضارة قد تكدّست أبـّان العصور السابقة : انتشار الزراعة في البلاد وتنظيم الديانة واللغة والكتابة واتقان المعدن والخزف والنسج، الخ. وقامت السلالتان الاولى والثانية بتحويل هذه الطاقات الحضارية إلى مملكة موحـّدة سياسياً . ان المشكلة السياسية في أيام ما قبل التاريخ لم تزل مجهولة لدينا، انـّما نراها تظهر في عهد السلالتين المذكورتين . ولذلك فمن المؤسف أنه ليس لدينا

ما ينوّرنا عن سير تنظيم البلاد. ان علم الآثار ودراسة الأساطير الدينية مكنانا من أن نتبين الخطوط العريضة لطريقة توحيد البلاد، وطريقة توحيد الشمال والجنوب بعد أن كانا متخاصمين. أما كيف ولدت الدولة الفرعونية، التي بدت كاملة التكوين في الحقبة التالية، فلا الوثائق الأثرية ولا الأساطير الدينية تنبئنا عن هذا. اننا نرى ملكاً واحداً منذ عهد السلالات الاولى ونرى البلاد مقسمة إلى أقاليم على رأسها موظفون ملكيون، لكنّ هذا كله ليس سوى نتيجة لتطور طويل نجهل كيف حصل. ولنا أمل بالحفريات العديدة التي تجري الآن في نواحي الصقّاره وحلوان، والتي تتناول العديد من مدافن السلالات الاولى، فلربما القت نوراً جديداً على التنظيم الاداري وعلى تطور الملكية. ولربما أجبرتنا أيضاً كما يستدل من بعض القرائن، على ارجاع تاريخ تنظيم البلاد إلى أزمنة أكثر بعدا في الماضي، أي إلى صميم تلك العصور الغامضة التي لخّصناها بكثير من الاختصار.

الفصل الثاني

مصر الكلاسيكية

١. المملكة القديمة (٢٧٨٠ – ٢٤٠٠ تقريباً ق.م.):

عندما كان مصريّو عهد الانحطاط يحلمون بعصر ذهبي كانوا يفكرون بالمملكة القديمة، وكان الكتبة والفنّانون يحاولون تقليد لغة ذلك العصر وفنه. ولسنا نعلم أيّة وثائق كانت لديهم لمعرفة أجدادهم البعيدين هؤلاء، ولكن الثابت هو أننا لسنا بوضع مثل وضعهم اذ انّ تاريخ المملكة القديمة لم يزل غامضاً. والصحيح هو أنّ هذه الحقبة قد خلّفت وراءها أنصاباً وأبنية عديدة، وأننا اذ نجهل النواحي السياسية والعسكرية والادارية من تاريخها فاننا نعرف الكفاية عن الحضارة المادية. ولن نستعرض هنا الاّ الاطار التاريخي للمملكة القديمة التي يعتبرها الكثيرون أكثر الحقبات كمالاً في الحضارة المصرية بأسرها.

وكما أنه لم يقم فاصل واضح المعالم بين العصر الحجري المعدني والسلالات الأولى. كذلك لم يقم ما يفصل عصر هذه السلالات عن بدء المملكة القديمة. وربما كان زوسر أول ملوك السلالة الثالثة هو ابن خاسخ موى آخر ملوك السلالة الثانية. لكن تقدم المدنية الذي تمّ في ذلك الحين لا سيّما في

فنّ البناء يبرر الكلام عن سلالة جديدة . ان أهم حدث في أيام زوسر هو انتقال المركز السياسي من أبيدوس إلى منفيس وهذا ما يستند اليه لاعتبار المملكة القديمة حقبة مميّزة ولتسميتها بالمملكة المنفيسية . وبعد أن بنى زوسر ضريحاً له في بيت خلاف قرب أبيدوس شيّد لنفسه هرماً مدرّجاً في الصقّارة قرب منفيس . ويبدو أيضاً أن تشعب الادارة الملكية أو توسّعها قد حصل في عهد زوسر بالذات. ممّا حدى بالفرعون أن يستعين بوزير في عمله الاداري والوزير هذا كان امحوتب . ومع أنه لم يحمل فعلا لقب وزير فانه قام بهذه المهام . وقد نشأت فيما بعد أسطورة حول هذا الشخص فألّه واعتبر ابنا لبيطاح اله منفيس . ويرجع اليه فضل تشييد المجموعة البنائية الرائعة : هرم الصقّاره المدرّج والابنية الاضافية التي تحيط به . ويستنتج من قرائن مختلفة أن زوسر وجّه غارات عسكرية نحو بلاد النوبة متابعاً بذلك عمل السلالة الاولى . وسوف تتبع هذه السياسة طيلة عهد المملكة القديمة اذ يبدو أن المصريين كانوا وقتئذ منشغلين بجيرانهم في الجنوب أكثر من انشغالهم بجيرانهم في الشمال الشرقي . ويوجد نص يرجع تاريخه إلى حقبة لاحقه ينسب إلى زوسر أول توغّل مصري في بلاد النوبة إلى ما بعد الشلال الاول ، لكن جر كما رأينا كان قد وصل قبله إلى الشلال الثاني . وربما يشير هذا النصّ إلى ضمّ بلاد النوبة لا إلى التوغل فيها. وبما أن سيناء كانت بمقالع حجاراتها الكريمة وبمناجم

نحاسها ضرورية للاقتصاد الصناعي والديني ، فانها بقيت قبلة الغارات ، ويستدل من صورة منقوشة على الصخور على أن جيش زوسر قد وصل اليها .

ويكتنف الغموض آخر عهد السلالة الثالثة وسائر ملوكها سانخت نبخا وخابا ونيفركا وحوني (الضارب) الذي له هرم في الدهشور. وقد اكتشف اخيراً زكريا غونايم هرماً غير منجز في الصقّارة يشير إلى أن خليفة زوسر كان اسمه ساخم خت وهذا كل ما نعرفه عنه .

السلالة الرابعة:

ان السلالة الرابعة التي بدأت بحكم سنافرو خليفة حوني ، هي سلالة بناة الأهرام الكبار ، ممّا يحمل على الاعتقاد بأنها معروفة أكثر من غيرها ، ولكنّ العكس هو الصحيح. ان ما ورد على الحجر المعروف بحجر بالرما ينبئنا عن حملة إلى بلاد النوبة وأخرى إلى ليبيا قام بها سنافرو ، وقد توجه جنوده أيضاً إلى سيناء . وشيّد سنافرو هرماً في الميدوم وآخر في الدهشور ، ويظهر أنه كان على علاقات مع سوريا التي كانت تمدّه بالأخشاب .

وحبذا لو كانت لدينا معلومات عن خلفاء سنافرو الثلاثة: كيوبس ، وكفرين وميكارنيوس . لكن معرفتنا بمشيّدي الاهرام الكبار ، أشهر أبنية في مصر ، تقل ايضاً عن معرفتنا بسلفهم . واعتبر اليونانيون هؤلاء الفراعنة كما اعتبرهم

الكثيرون من المؤرخين الحديثين طغاة أرهقوا الشعب المصري بالاشغال. وقد بين المؤرخ بوزنر أن الاعتقاد التقليدي يعود إلى ما انتشر في مصر من الدعايات المعادية للملكية في أيام الحقبة المتوسطة الاولى. وفي الواقع استمر تكريم ذكرى هؤلاء الملوك الثلاثة في مصر ايام الفتح المكدوني، ممّا لا يتناسب مع سمعة ملوك مكروهين. ان الحملات التّي وجهها كيوبس إلى سيناء هي كل ما نعرفه عن النشاط العسكري الذي قام به ملوك هذه السلالة. فنحن في وضع كما لو كنّا لا نعرف شيئاً عن عهد لويس الرابع عشر الا قصر فرسايل فقط. فالابنية هي امامنا كاملة تشهد شهادة لا تدحض بحضارة متوفقة بتقنيتها وبتنظيمها، ولكننا لا نعرف ما يزيد على ذلك. وتسلسل فراعنة هذه السلالة ذاته ليس أكيداً لأننا لا نعرف مرتبة الملك دي دوفري الابن الثاني لكيوبس، الذي يبدو أنه اغتصب العرش بعد أن قتل أخاه، ثم قتل هو بدوره وحلّ كيفرن مكانه. أما آخر ملوك السلالة الذين يذكرهم مانيتون فليس ما يثبت صحة وجودهم.

السلالة الخامسة (٢٦٥٣ ـ ٢٤٢٣):

تروى لنا قصة مصرية ترجع إلى عهد المملكة الوسطى أصل السلالة الخامسة. ان زوجة أحد كهنة الاله رع حملت من هذا الاله بالملوك الثلاثة الاولين من هذه السلالة. والثابت أنه كان لعبادة الاله الشمس رَع في ذلك الزمن أهمية أولية وربما كان ذلك لأن اصل السلالة يعود إلى هليوبوليس

(مدينة الشمس) حيث كان يُعبد، لأن كهنة هذا الاله قد اسهموا في استيلاء السلالة على الحكم . ومهما يكن من أمر فان الفراعنة بدأوا يلقبون أنفسهم بأبناء رَع منذ ذلك الحين . ويتجلى تسلط الدين على حياة ذلك العصر أولا في أسماء الفراعنة حيث يظهر غالباً اسم رَع : مثل ساحورع — ونفاريركا رَع — وشب سس كارَع — ونيفرافرَع — وناوسرَع . وقد بنيت هياكل عديدة في ذلك العصر . ذكرت في حجر بالرما، كما جمعت في ذلك الحين نصوص الأهرام ان لم تكن قد ألفت فيه .

اما من الناحية التاريخية فيظهر أن السلالة الخامسة قد وجهت اهتمامها نحو آسيا، وربما كان ذلك لأنها توخت التوسع فيها او لانها تعرضت لهجمات منها . وقد قاد خمسة فراعنة منها حملات عسكرية إلى سيناء وإلى آسيا وليبيا .

السلالة السادسة (٢٤٢٣ — ٢٢٦٣) :

تمّ الانتقال من السلالة الخامسة إلى السلالة السادسة بهدوء على ما يبدو . وان كنا لا نعرف شيئاً تقريباً عن الملكين الاول والثاني من ملوك هذه السلالة فاننا نعرف عن خلفهما الفرعون بيبي الأول أنه شيّد هياكل عديدة كما نعرف بعض التفاصيل عن حياته وردت في سير وصلت الينا لبعض كبار الموظفين . ان بيبي الاول تزوج على التوالي من ابنتي احد كبار موظفيه و رزق من كل واحدة ابناء تعاقبوا على العرش . ولدينا وثائق

عديدة حول نشاط بيبي ولا سيّما مراسيم تقضي بانشاء مؤسسات لاعمال خيرية، وهذه المراسيم ثمينة لدرس الشرع المصري في ذلك العهد البعيد . وقد راقب بيبي بلاد النوبة بكل انتباه كما فعل أسلافه ولكنه وجّه حملات عديدة ضد الاسيويين . وقد قام قائد اسمه اوني بخمس حملات ضد البدو في آسيا ، ممّا يدل على أنه لم يقيم مطلقاً باحتلال بلادهم بل أن الجيوش المصرية كانت تكتفي بشن غارات عليهم .

وخلف بيبي ابنه ميرانرَع الاول الذي مات فتياً اذ لم يحكم سوى خمسة أعوام أو ستة . وقد تابع ميرانرَع على ما يبدو سياسة الاستعمار في بلاد النوبة الذي سينجزه خليفته . وقد وجه إلى مصر العليا شخصاً اسمه هركوف بلغ واحة السليمة السودانية . أما ميرانرَع فقد قام شخصياً برحلة إلى جزيرة اليفانتين حيث تقبل خضوع القبائل السودانية . ولما توفّي انتقل العرش إلى أخيه من أبيه بيبي الثاني الذي كان له من العمر ست سنوات فقط . ان ملك بيبي الثاني هو أطول ملك في تاريخ مصر اذ انه دام ٩٤ عاماً . وفي عهده استأنف هركوف توطيد السلام في بلاد النوبة وأرسلت بعثات تجارية إلى بيبلوس وإلى بلاد البونت أي على طول الشاطىء الافريقي للبحر الاحمر صوب ارتيريا الحالية .

وفي عهد بيبي الثاني بدأ انحطاط المملكة القديمة ولربما كان السبب في ذلك أن سني ملكه طالت كثيراً، او لانه لم تعد له في شيخوخته القدرة الكافية للابقاء على وحدة البلاد التي

كانت لا ترتكز الاّ على شخصه . ويروي مانيتون أن ملكاً وملكة حكما بعد بيبي الثاني دون أن نعرف شيئاً عن ملكهما . ان المملكة القديمة التي انتهت مغمورة كانت حقبة ازدهار داخلي كبير في مصر . ومن المؤكد أن السلطة الفرعونية بلغت آنئذ أوجها . فقد كان الملك بكل معنى الكلمة الهاً على الأرض يخشى ويطاع ، وعرفت مصر بفضل نظام حكمه ازدهاراً اقتصادياً لم تعرفه فيما بعد الا بصعوبة وفي فترات متقطعة . وليست لدينا المعلومات الكافية عن الاشعاع الخارجي للملكة القديمة، سوى أن مجرد وجود هيكل مصري في بيبلوس يرجع تاريخه إلى ذلك العصر يدل على أن هذا الاشعاع لم يقتصر على استعادة بلاد النوبة التي تعتبر على كل حال أهم منجزات هذا العصر .

٢. الحقبة المتوسطة الاولى:

شهدت الحقبة التي تفصل بين المرحلة الاولى من تاريخ مصر الكلاسيكية والمرحلة الثانية ثورة اجتماعية رافقها تفتت السلطة المركزية ولربما رافقتها أيضاً تسللات خارجية . ان هذه الحقبة هي غامضة جداً . ولئن كانت لدينا وثائق معاصرة لانحطاط السلطة الملكية تلقي عليها بصيصا من النور ، فاننا لا نعرف شيئاً عن الثورة الاجتماعية الا من نصوص ادبية كتبت في حقبة لاحقة . وقد عزي انحطاط السلطة الملكية إلى عوامل عدة منها ضياع هيبة الفرعون وتوارث مناصب حكام الاقاليم واغتصاب هذه المناصب .

وفيما يلي بعض مقتطفات وردت في النصوص الادبية المذكورة : « ان الفقراء اصبحوا يملكون الثروات، ومن لم يكن بقدرته أن يشتري نعلا صار صاحب الكنوز . . . ان الاغنياء يئنون والفقراء هم في الافراح. يقول أهل المدن «لنقبض على الاغنياء الذين هم بيننا» . ان القصور والاعمدة هي فريسة النيران

والاقاليم تخربت ... الذهب والفضة والحجار الكريمة تزين أعناق العبيد، والسيدات النبيلات يقلن «آه لو كان لدينا ما نأكله» وهن حزينات بسبب ثيابهن الرثة ... اصبحت البلاد قاعا صفصفا ... لم يبق شيء ... »

وتبين هذه النصوص بوضوح تام حصول ثورة حقيقية في مصر . وليس لدينا وثائق تاريخية تمكننا من دراسة هذه الثورة سوى هذه النصوص التي ألفها كتبة المملكة الوسطى بأمر من فراعنة السلالة الثانية عشرة، والتي لا تخلو من المبالغة في وصف الفوضى الاجتماعية لاظهار فضل ملوك المملكة الوسطى في اعادة النظام والاستقرار .

ويروي مانيتون أن عدد ملوك السلالة السابعة بلغ السبعين ملكا لم تتعد مدة حكمهم السبعين يوماً، وان عدد ملوك السلالة الثامنة بلغ الثمانية عشرة ملكاً لكنه لا يذكر اسماءهم وقد زالت السلالة الثامنة المنفيسية حوالي عام ٢٢٢٠ ويبدو أن مصر عادت إلى ما كانت عليه في عهد ما قبل التاريخ اذ قامت مجموعة من الاقاليم في مصر الوسطى ومجموعة أخرى في الجنوب . ولم تلبث أن نشبت بينهما الحروب، ولسنا نعرف شيئاً عن هذه الفترة حتى سنة ٢٠٦٠ حين نرى مصر موحدة من جديد تحت سلطة رجل يدعى منتوحوتب سليل حكام طيبة الذين كانوا يتزعمون الاقاليم الجنوبية . ويبدأ عهد المملكة الوسطى منذ ذلك التاريخ .

٣. المملكة الوسطى (٢٠٦٥ - ١٥٨٥ ق.م.):

بعد حقبة الاضطرابات الطويلة التي انتهت نحو سنة ٢٠٠٠ أعيد توحيد السلطة في مصر بفضل حكام طيبة . ولم يقم بهذا التوحيد فرعون واحد بل انه تحقق بفضل عمل جميع ملوك السلالة الحادية عشرة التي كانت في أول عهدها معاصرة للسلالة العاشرة التي حكمت في هيراكليوبوليس . وبينما حصر ملوك هيراكليوبوليس اهتمامهم بالدلتا وتوصلوا إلى طرد البدو منها، نرى ان زعماء طيبة الاولين وجهوا

اهتمامهم نحو بلاد النوبة . وبذلك وبفضل الجهود التي بذلت في آن واحد في الجنوب وفي الشمال، اتجهت البلاد نحو الوحدة فانجزتها السلالة الحادية عشرة عندما آل الحكم اليها .

السلالة الحادية عشرة (٢٠٠٠ – ١٢٦٠) :

ذكرنا سابقاً حكام طيبة الاولين الذين حاربوا ملوك هيراكليوبوليس . وكان الفراعنة الذين حملوا اسم منتوحوتب الذين يرجع اصلهم إلى حكام طيبة أول من حمل لقب ملك مصر العليا والسفلى . وكان يسود الاعتقاد حتى السنوات الاخيرة بأن خمسة فراعنة حملوا هذا الاسم . ولكن بعد تدقيق طويل في المصادر التاريخية اصبح اليوم من المرجح انهم كانوا ثلاثة فقط، وان منتوحتب الاول (٢٠٦٥ – ٢٠١٥) هو الذي توصل إلى اعادة الاستقرار إلى مصر . وأما منتوحوتب الثاني والثالث فكل ما يعرف عنهما انهما حكما مدة قصيرة .

ولم يقتصر عمل السلالة الحادية عشرة على اعادة توحيد البلاد وعلى وضع حد لاستقلال الاقاليم الذي كان قد حصل خلال الحقبة المتوسطة الاولى، بل هذه السلالة عادت إلى سياسة التوسع في بلاد النوبة وامتد هذا التوسع إلى الشلال الثاني . كما ان ملوك هذه السلالة شقوا طريق وادي الحمامات الذي كان يصل مصر بالبحر الاحمر كما كان نقطة انطلاق الحملات نحو سيناء وبلاد البونت . وتمر هذه الطريق عبر

الصحراء الشرقية، وقد قام ملوك السلالة الحادية عشرة بحملات عسكرية ضد الرحّل الذين كانوا يجوبون البلاد وحفر هؤلاء الملوك آبار ماء على الطريق التي شقوها .

السلالة الثانية عشرة (٢٠٠٠ – ١٧٨٥) :

لا نعرف كيف انتقل الحكم من السلالة الحادية عشرة إلى السلالة الثانية عشرة . غير ان أحد وزراء آخر ملوك السلالة الحادية عشرة كان اسمه امنمحات، وهو اسم مؤسس السلالة الثانية عشرة بالذات، فلا يستبعد أن يكون قد اغتصب السلطة. ان السلالة الثانية عشرة التي تولت الحكم نحو سنة ٢٠٠٠ هي من أمجد السلالات في تاريخ مصر . ولم تحافظ مصر في عهدها على استقرارها الداخلي فحسب، بل ان اشعاعها امتد إلى الخارج أكثر ممّا امتدّ في عهد أيّة سلالة سابقة بما فيها فراعنة السلالة الرابعة العظام . ومع أن أصل هذه السلالة كان من طيبة فقد استقرت في منفيس حيث تمكنت من أن تحكم البلاد بصورة أسهل .

امنمحات الاول (٢٠٠٠ – ١٩٧٠) اهتم خاصة بالادارة على ما يبدو . ولعله استند، في سبيل الاستيلاء على الحكم على النبلاء في الاقاليم وهذا ما يفسّر الاستقلال النسبي الذي عادوا وحازوا عليه . وقد اهتم بحماية الحدود الشرقية ولكن خلفاءه هم الذين انجزوا هذا العمل . وتوغل امنمحات الاول في بلاد النوبة حتى كوروسكو . وقد قضت مؤامرة في

البلاط على حكمه بصورة فجائية . وكان ابنه وقتئذ على رأس الجيش في ليبيا ولكنه تمكن من العودة إلى مصر في الوقت المناسب واستولى على الحكم .

سيزوستريس الاول (١٩٧٠–١٩٣٦)– تابع سيزوستريس الاول سياسة والده في بلاد النوبة وتوغّل حتى الشلال الثالث واستولى على مناجم الذهب في تلك البقاع . ولكي يبلغ هذه المناجم كان لا بدّ له من الانطلاق من وادي حلفا فشيّد فيها قلعة ليؤمن سلامة حملاته . وقد أشرك سيزوستريس ابنه البكر في الحكم منذ حياته تجنباً للأحداث الدامية التي وقعت في آخر عهد والده، وسوف يحذو حلفاؤه حذوه .

أما امنمحات الثاني وسيزوستريس الثاني فقد كان عهدهما غير ذي شأن .

أما سيزوستريس الثالث (١٨٨٧ – ١٨٥٠) فقد كان أعظم فراعنة مصر، ونشأت حول ذكراه أساطير تضخمت مع مرور الزمن وتناقلها اليونانيون . وقد امتدت فتوحاته إلى فلسطين واستأنف في بلا د النوبة سياسة امنمحات الاول وسيزوستريس الاول التي كان سلفاه قد اهملاها . فقام بأربع حملات أعادت الأمور إلى نصابها وبنى قلاعا لحماية فتوحاته .

وقد استفاد امنمحات الثالث (١٨٥٠ – ١٨٠٠) من الاستقرار الذي نجم عن حملات والده وحصر اهتمامه على ما يبدو في استثمار مصر زراعياً واقتصادياً .

وختمت ايام السلالة الثانية عشرة بحكم ملك وملكة : امنمحات الرابع وسبخ نفا رورع . وكل ما نعرف عن حكمهما أنه لم يكن مجيداً وأنه شهد انحطاط السلالة السريع .

ان الملخص السريع الذي اوردناه لتاريخ ملوك السلالة الثانية عشرة لا يعطي فكرة من اشعاع هذه السلالة في الداخل وفي الخارج . ان هذا الازدهار كان عملا جماعياً حققه ملوك هذه السلالة. ولئن اضطرّ امنمحات الأول الى أن يعطي حكام الاقاليم بعض الاستقلال الذاتي فان ذلك لم يدم طويلا . وعادت سلطة الفرعون مطلقة في عهد سيزوستريس الثالث إلى درجة أنه ألغى وظيفة حاكم الاقليم . وبعد ان استعاد الفرعون سلطانه ركزت السلالة اهتمامها على استثمار أرض البلاد ولا سيما ارض الفيوم التي جعل منها الفراعنة واحة حقيقية وشيدوا قصورهم بقربها . وكان هؤلاء الفراعنة بناة كباراً فشيدوا شبكة تحصينات في الجنوب وفي الشرق لحماية مصر من اعدائها . وبنى امنمحات قصره في الحواره بشكل خلق خرافة التيه عند اليونانيين .

أما العلاقات مع الخارج فان الروابط مع سوريا وبيبلوس كانت على ما يبدو على درجة من التوثيق والود جعلتنا نتساءل عمّا اذا لم يتول حاكم مصري ادارة فنيقيا في أيام السلالة الثانية عشرة . واستثمرت سيناء بصورة منظمة وأرسل المصريون بعثات تجارية إلى بلاد البونت . اما في الجنوب فقد امتدت الحدود المصرية حتى سمنه على بعد سبعين كيلومتراً

جنوبي وادي حلفا حيث انشئت منطقة محصنة معقدة حالت دون دخول القبائل السودانية التي لا تعرف الهدوء والاستقرار. وتمكن فراعنة السلالة الثانية عشرة بفضل القلاع المنيعة التي بنوها قرب الشلال الثاني من ارسال البعثات التجاريةإلى قلب السودان. وكان مركز تجارتهم في كرمة جنوبي الشلال الثالث حيث بنى امنمحات الثالث مركزاً محصناً لوكلاء تجارته. اما العلاقات مع جزيرة كريت، التي أكد بعضهم قيامها منذ تلك الحقبة، فانها ما تزال مجهولة ومن المحتمل ان تكون قد نشأت عن طريق فينيقيا.

وهكذا فان مصر لم تعد تخشى شيئاً من الخارج في عهد المملكة الوسطى اذ كانت تحميها قلاع منيعة في الجنوب وفي الشمال الشرقي. ولكن امنها لم يكن مستقراً لأنه كان يرتكز على سلطان ملوك المملكة الوسطى من جهة، وعلى ضعف اعداء مصر الاسيويين من جهة اخرى. لكن هذين الشرطين لأمن مصر ما فتئا أن زالا خلال سنوات قليلة.

٤. الحقبة المتوسطة الثانية (١٧٨٥ — ١٥٧٠ ق م):

ان الحقبة المتوسطة الثانية هي بلا ريب اكثر الحقبات غموضاً في تاريخ مصر. ولم يزل الجدل حول طول مدتها قائماً حتى الآن. فاذا ما جمعنا الارقام التي اوردها مانيتون للسلالات الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة، نصل إلى الف وخمسماية

وثلاث وثمانين سنة . لكنّنا لا نعتقد اليوم أنها تجاوزت المائتي سنة . ان العدد الكبير للملوك الذين حكموا خلال هذه الحقبة القصيرة نسبياً يمكن تفسيره بأن سلالات هذه الحقبة المتوسطة حكمت في الشمال وفي مصر الوسطى وفي الجنوب في آن واحد وربما توصل مؤرخو آسيا الامامية إلى اعطاء التفاصيل الدقيقة عن توقيت حوادث هذه الحقبة . فقد كانت تربط مصر وآسيا علاقات عديدة، وقد تكفي معرفة بعض التواريخ من الناحية الاسيوية لتأمين بعض نقط ارتكاز للتاريخ المصري . ومهما يكن من أمر مدة الحقبة المتوسطة الثانية فبامكاننا أن نميّز فيها ثلاثة عهود : عهداً سلالياً ظل الحكم فيه بين أيدي ملوك مصريين، وعهد غزو واغتصاب خارجيين واخيراً استعادة السلطة من قبل المصريين . وبالطبع لم تكن الاحداث متميزة إلى هذا الحدّ اذ ان غزو الهكسوس ابتدأ قبل ان تنقرض الملكية المصرية، وكذلك فان استعادة المصريين للسلطة بدأت في حين كان ما يزال فيه حكم الهكسوس الغزاة قائماً .

السلالتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة. – لا نعرف من هاتين السلالتين الا أسماء ملوكهما، كما اننا نكاد لا نعرف شيئاً عن سير الانحطاط . وقد كثر عدد الملوك إلى حد جعلنا نتساءل عما اذا لم يكونوا ينتخبون لمدة معينة . وقد تفاقمت الفوضى بسرعة . ويحدد مانتيون بدء غزو الهكسوس في ذلك الوقت، انما نعتقد ان هؤلاء الغزاة كانوا قد استقروا في الدلتا منذ عهد أول ملوك السلالة الثالثة عشرة، وانهم توسعوا في البلاد في عهود آخر ملوك هذه السلالة واول ملوك السلالة التالية . وكان آخر ملوك السلالة الرابعة عشرة يعتبر نفسه مولى للهكسوس .

الهكسوس: ان مانتيون هو الذي أورد اسم الهكسوس ويمكن ان تكون هذه الكلمة تحريفاً لـ« هيكا خاسوث » المصرية ومعناها « رؤساء البلاد الاجنبية » . ان غزو الهكسوس كان جزءاً من حركة هجرة واسعة حصلت في آسيا في ذلك الزمن وهو ذو علاقة بغزو الآريين للشرق الادنى في الالف الثاني قبل المسيح .

وقد حصن الهكسوس بعد احتلالهم الدلتا مدينة افاريس وجعلوا منها عاصمتهم. ويرجع تأسيس أفاريس إلى سنة ١٧٣٠ بعد نهاية عهد السلالة الثانية عشرة بثمانية وخمسين عاماً . ويرجح ان الهكسوس تعايشوا في الدلتا مع المصريين فترة طويلة من الزمن حينما كان الحكم المصري ضعيفاً لدرجة انه قبل بالامر الواقع . لكننا نجهل طبيعة العلاقات القائمة بين الطرفين . ويرجح أيضاً أن عدد الهكسوس تزايد بسبب انضمام غزاة جدد اليهم، وأنهم أخذوا ينظمون أمرهم تدريجياً ثم انضموا تحت لواء قائد واحد أخذ على عاتقه احتلال البلاد بأسرها . ويبدو أن انتصارهم كان سريعاً .

وقد تركوا للمصريين ذكرى مرعبة ظلت تعاودهم فيما بعد . وقد اغتنم السودانيون والنوبيون فرصة انحلال الحكم الملكي المصري وبعد ملوك الهكسوس في الدلتا فأسسوا مملكة موحدة جنوبي الشلال الاول سميت مملكة كوش .

السلالة السابعة عشرة وتحرير البلاد : يبدو أن الهكسوس اكتفوا بفرض جزية على المصريين وتركوا الادارة المصرية قائمة وأن سلطتهم لم تشمل مصر العليا وسوف يقوم ملوك طيبة مرة أخرى باعادة توحيد مصر . ومن الممكن ان يكون تاسع فراعنة السلالة واسمه سكانانا نرع طاع هو الذي بدأ الصراع السافر ضد الهكسوس . وقد وجدت مومياء هذا الفرعون وتبين أن في رأسها جروحاً مما يحمل على الاعتقاد بأنه قضى نحبه في ساحة القتال . وتابع ابنه خاميس القتال وقهر الهكسوس في معركة وقعت شمالي هرموبوليس وطاردهم حتى الشمال . وقام أخوه احموزيس الذي خلفه بحصار افاريس وفتحها وطارد الهكسوس حتى جنوبي فلسطين .

وبذلك ختمت الحقبة المتوسطة الثانية وبدأ عهد المملكة الحديثة او المملكة الطيبية الثانية .

ان ما يكتنف تاريخ الحقبة المتوسطة من غموض يحول دون تقدير تأثيرها على تاريخ مصر اللاحق. وقد تزعزعت اركان البلاد من عنف الكارثة التي حلت بها ومن امتدادها . ولم يكن الرحل الاسيويون يشكلون قبل ذلك خطراً على مصر بل كانوا يعتبرون جيراناً مزعجين فقط . ان « سور الامير » ، أي التحصينات التي بناها ملوك السلالة الثانية عشرة في برزخ السويس كان في نظر المصريين كافياً للحيلولة دون وصول البدو إلى مصر ليقوموا بأعمال النهب « وليسقوا قطعانهم من مياه النيل » فأثبت غزو الهكسوس أنه لم يكن كافياً لهذه الغاية . وأصبحت آسيا القوية تهدد منذ ذلك الحين أبواب مصر . وهذا هو الامر الأساسي الذي سيقرر الآن التاريخ المصري بأسره .

٥. المملكة الحديثة (١٥٨٠ – ١٢٠٠ ق . م .):

ينتهي تاريخ مصر الكلاسيكي بالمملكة الحديثة ولن تستعيد مصر فيما بعد ما كان لها من القوّة والعظمة في عهودها السابقة . ولن يكون تاريخها بعد ذلك الحين سوى انحطاط طويل او اشبه ما يكون بحقبة متوسطة ثالثة لم يكن لها غد . لكنها عرفت قبل هذا النزاع الطويل فترة من الازدهار هي فترة المملكة الحديثة . وتختلف المملكة الحديثة بمظاهر عدّة عن العهود التي سبقتها . فقد أصبحت ناحية طيبة المركز الاداري للبلاد بعد ان بقي هذا المركز خلال العهود السابقة في منفيس وفي مصر الوسطى . وبذلك جنت طيبة ثمار مقاومتها الطويلة لمختلف انواع الكبت التي عانتها . وقد فرضت انتقال مركز الحكم ضرورات جغرافية جديدة . فالتوسع نحو الجنوب أعتبر منجزاً بعد ان بلغ الشلال الرابع قرب ناباتا . ومنذ ذلك الحين راحت مصر تمتد من خط العرض السابع عشر إلى البحر المتوسط أي على مسافة تبلغ

٢٢٦٠ كيلومتراً من وادي النيل . ومن الطبيعي ان تتمركز العاصمة في أقرب نقطة من وسط هذه الاراضي الشاسعة لتتمكن من مراقبتها واستثمارها . ومما زاد في ضرورة هذا الامر ان هذه الامبراطورية الافريقية اصبحت المصدر الرئيسي لجزء كبير جداً من موارد مصر، كالذهب، والمواد الاولية، (كالخشب والعاج والصمغ والحجارة الثمينة) والمواشي ولا سيما الرجال لجيشها وشرطتها. ولولا استناد مصر على الاراضي الداخلية الافريقية لما تمكنت من التوغل في آسيا. ولئن تميزت المملكة الحديثة عن حقبات الوحدة الاخرى بموقع عاصمتها فانها لم تقل تميزاً عنها بسياستها الخارجية . فبينما اتسمت السياسة العسكرية أبّان المملكة الوسطى ولا سيما ابّان المملكة القديمة بطابع الدفاع ، (مما لم يحل دون شن غارات على الاعداء) فان المملكة الحديثة انتهجت سياسة فتوحات، او كما نقول اليوم سياسة امبريالية . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن سياسة مصر تجاه الاسيويين كانت قد تعدتها الاحداث . ولما كانت البلاد قد رزحت خلال قرنين تحت وطأة الاحتلال الاجنبي، فانها سوف تسعى إلى تجنب مثل هذه الكوارث بتوسعها نحو الشرق قدر المستطاع ، لتبعد بقدر الامكان عن حدودها القبائل الاسيوية الصاخبة التي كانت قد اتحدت نوعاً والتي كان يحرضها الميتانيون وهم غزاة آريون كانوا قد تمركزوا بين العاصي والفرات الاعلى . وسوف تؤثر هذه السياسة الجديدة تأثيراً عميقاً في المدينة المصرية .

فعلى الرغم من الغزوات والتسلل الاجنبي كانت مصر حتى ذلك الحين تعيش على مواردها الخاصة، وبتوغلها العميق في الشرق اتصلت اتصالاً وثيقاً بالحضارات الكبرى في آسيا الغربية، ومع انها ظلت مصرية واحتفظت باصالتها فانها تغيرت كثيراً . وقد طرأ هذا التغيير على اللباس والسلاح وعلى الحياة اليومية ذاتها . ان مصر التي تميزت حتى ذلك الحين بذوقها المعتدل تبنت الترف الشرقي الذي ادهشنا ما تركه من التحف الرائعة في مدفن توت عنخ آمون . وليس من شأن ذلك ان يحملنا على التذمر . فقد اكتسب الفن في تلك الحقبة من الاناقة والفتنة ما فقده من قوة . وليس هذا سوى مظهر آخر من مظاهر العبقرية المصرية .

السلالة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ــ ١٣٢٠) ــ لم يقم ما يفصل بوضوح بين السلالة السابعة عشرة والسلالة الثامنة عشرة. ان آخر فراعنة السلالة السابعة عشرة هو أول فراعنه السلالة الثامنة عشرة . ويبرر تغيير السلالة واسم الفرعون الاستيلاء على مدينة افاريس الذي يضع حداً لغزو الهكسوس ويشكل بداية توحيد جديد لمصر .

أحموس الاول (١٥٨٠ ــ ١٥٥٨) : اشتهر بصراعه ضد الهكسوس . ويروي لنا نص قديم بعض تفاصيل هذا الصراع وفتح افاريس . ولا نعرف شيئاً عما حققه داخلياً سوى أنه شيّد معابد جديدة للآلهة. وسوف يتزايد تغلغل الدين في التاريخ السياسي. فليس الملك في مصر هو الذي يصرع

الاعداء، بل الاله هو الذي يمكنه من التغلب عليهم . وسوف نرى فيما بعد ان هذا لم يكن مجرد تعبير انشائي .فالحكم سوف يتطور اكثر فأكثر نحو ثيوقراطية حقيقية حتى يصبح رؤساء كهنة أمون أسياد البلاد الحقيقيين . وبعد ان درأ احموس الخطر الأسيوي باستيلائه على شاروحين في فلسطين أنجز عمله التوحيدي بضم بلاد النوبة إلى مصر . وقد كانت هذه البلاد قد تحررت أثناء الحقبة المتوسطة الثانية وربما كانت قد تحالفت مع الهكسوس . وقد توالت خلال عهده اعمال التمرد في بلاد كوش واضطر احموس إلى القيام عليها بثلاث حملات، ويبدو انه بلغ جزيرة ساي بين الشلالين الثاني والثالث . ويبدو ايضاً انه قام مرة في آخر عهده بحملة على فينيقيا .

أمنحوتب الأول : وتابع امنحوتب الاول عمل والده وبنى مثله هياكل عديدة . وقام بحملة على بلاد النوبة وتمركز بقوة في وادي خلفا . ولسنا نعرف شيئاً عمّا قام به في آسيا، انما لا بدّ من أن يكون قد وجه اليها حملة لأن خليفته قد أعلن عند تبوئه العرش ان مصر تمتد حتى الفرات . ومن المؤكد ان احموس لم يذهب إلى هذا البعد .

تحوتمس الاول (١٥٣٠ — ١٥٢٠) لم يرزق امنحوتب الاول الا [illegible]ات من زوجته الشرعية. ويبدو أنه كانت للبنات في مصر [illegible]قوق في عرش أبيهنّ ولكنهنّ لم يتمكّن من الحكم وحدهنّ . فاستولى على الملك ابن غير شرعي لامنحوتب

اسمه تحوتمس . ولكي يثبت حقه بالعرش — او ربما لكي يحصل على مثل هذا الحق — تزوج أخته من أبيه أبنة أمنحوتب الاول وهي الملكة الشرعية. وقد تجاوز في حملاته الشلال الثالث وبلغ نهر الفرات في سوريا حيث شيّد مسلة للاشارة إلى الحدود . لكن الأمر لم يتعدّ بدون شك كونه غزوة لتحصيل الجزية .

تحوتمس الثاني (١٥٢٠ — ١٥٠٥) : ان مشكلة الخلافة التي قامت بعد وفاة أمنحوتب الأول عادت وتكرّرت في الظروف ذاتها بعد وفات تحوتمس الاول الذي لم يخلّف من الاولاد الشرعيّين سوى بنات . وفي هذا الظرف أيضاً استولى على العرش ابن له غير شرعي هو تحوتمس الثاني، وهو أيضا تزوج من أخته من أبيه وكان اسمها حات شبسوت . وقد نشبت ثورتان في أيام ملكه احداهما في بلاد كوش والاخرى في سوريا لكنه تمكّن من قمعهما، ولكن تكرار هذه الحوادث يلقي ضوءاً على هزال « فتوحات » الجيش المصري . إن هذا الجيش كان يقوم بغارات ثم يعود إلى مصر دون أن يحتلّ البلاد . واذا تركت قوات في القلاع لمراقبة البلاد المفتوحة فان مهمة هذه القلاع كانت تقتصر على حراسة طرق المواصلات ولا تتدخل في حكم أهل البلاد .

تحوتمس الثالث وحات شبسوت : لم يرزق تحوتمس الثاني بدوره سوى بنات من زوجه الشرعية، وكان له عند وفاته ابن غير شرعي نودي به ملكاً باسم تحوتمس الثالث . لكنه

كان صغير السن فعينت زوجة أبيه حات شبسوت وصية على العرش غير أن هذه الوصاية ما لبثت ان تحوّلت إلى ملك حقيقي وحكمت حات شبسوت منفردة اثنين وعشرين عاماً بعد ان حجرت على ابن زوجها في مكان مجهول. ولما كان كهنة أمون هم الذين نادوا بتحوتمس الثالث ملكاً عند وفاة أبيه؛ اصبح من الاهمية بمكان ان نعرف موقفهم خلال هذه الفترة، لكننا نلاحظ فيما بعد أن رئيس كهنة أمون أصبح موالياً لحات شبسوت وان هذه الاخيرة أعلنت نفسها ابنة أمون لكي توطد سلطانها . فيبدو والحالة هذه أن كهنة هذا الاله قد مثلوا دوراً هاماً في الخلافة امّا بتأثير من الملكة أو من تلقاء أنفسهم . وكان ملك حات شبسوت هادئاً من الوجهة العسكرية، وقد يكون السبب في ذلك عدم ثقة الملكة بالجيش او عدم قدرتها على قيادته بنفسها .

واستعيض عن الحملات العسكرية ببعثات تجارية وجهت إلى بلاد البونت بنوع خاص . وقد تميّزت هذه الفترة بروعة آثارها الفنية يشهد بذلك مدفن الملكة في دير البحري الذي بناه مهندسها وحظيها سنين موت والذي يعتبر رائعة بما فيه من الجرأة الهندسية والتناسق .

وبعد موت حات شبسوت تمكن **تحوتمس الثالث (١٥٠٤ – ١٤٥٠)** من استعادة الحكم، وقد حمله حقده على زوجة أبيه على اضطهادها بعد موتها . فأمر بازالة اسمها عن الابنية وبابداله باسمه او باسم أبيه او باسم جده . ولحسن الحظ لم

يقتصر نشاطه على هذا العمل التخريبي بل تابع تقاليد أسرته وشيّد أبنية عديدة أهمها في طيبة .

واكتسب تحوتمس الثالث مجداً رفيعاً بأعماله العسكرية . ولا ريب في أنه كان ألمع الفراعنة المصريين وأنه هو الذي بسط سلطة بلاده إلى أقصى حدودها . ولما كانت سياسة اسلافه قد أمنت له الهدوء في الجنوب استطاع ان يتجه نحو الشرق حيث كان يكمن مصدر الخطر الرئيسي على الفراعنة وقد كان الميتانيون قد شجعوا في آسيا تكتلا معادياً لمصر ولعلهم اغتنموا فرصة تراخي حات شبسوت ليحققوا ذلك . وكان هذا التكتل القائم بقيادة ملك قادش قد حرّض آسيا مرّة أخرى على الثورة ضدّ مصر ، ممّا اضطر ذلك تحوتمس الثالث إلى قيادة سبع عشرة حملة ليقضي عليها نهائياً وليعيد بسط السيادة المصرية في الشرق . ولم تكن لجميع هذه الحملات الاهمية ذاتها ، فمنها ما كان تفتيشاً مسلّحاً ، ومنها ما كان غارات تأديبية محدودة . هل كانت لدى تحوتمس الثالث خطة ستراتيجية مسبقة ؟ قد يكون ذلك ممكنا وقد يكون هذا التقدير خاطئاً — لأننا لا نملك من الوثائق ما يمكنّنا من تقدير الموقف حق قدره .

ان تحوتمس الثالث لم يقم فوراً بمهاجمة الميتانيين الذين كانوا اعداءه الحقيقيين والذين كانوا يحرضون على كل الثورات ضد مصر ، بل انه باشر بتأمين قواعد متينة قبل أن يوجه اليهم الضربة القاضية .

لقد استولى تحوتمس الثالث بحملاته السنوية الاولى على سوريا وفلسطين ثم قضى ثلاث سنوات في تنظيم هذين البلدين . وراح بعد ذلك يهتم بطرق مواصلاته . وابان الحملة الخامسة استولى على مرفأ في فنيقيا فأصبح بامكانه تجنب طريق البر الصحراوية الطويلة . فسلك اذن طريق البحر ليقوم بحملته السادسة التي توصل خلالها إلى الاستيلاء على قادش على العاصي ، وكانت قادش القاعدة الرئيسية لاعدائه . لكنّ القواعد التي انشأها لم تكن أمينة ، وبان ضعفها عندما نشبت ثورة في فنيقيا . لذلك وجه حملته السابعة للاستيلاء على مرافئ عدة في فنيقيا . وبعد أن قام بهذا الفتح أصبح له من القوة ما مكّنه من شنّ هجوم كبير كان حملته الثامنة. فأبحر من مصر ، ونزل في فنيقيا ، ثمّ اخترق سوريا ، وبلغ الفرات فعبره على زوارق كان قد أمر ببنائها في بيبلوس وحملها معه عبر الصحراء ، ثم التقى بالميتانيين وهزمهم ولاحقهم في قلب الجبال . وكان لهذا النصر دوي عظيم ، حمل الميتانيين وجيرانهم الذين لم يحاربوا مصر ، أي الاشوريين والبابليين والحثيين ، على التعقل ودفع الجزية للمنتصر .

وبفضل الانتصار على الميتانيين خضع قسم كبير من آسيا الغربية للنفوذ المصري . ولم تكن الحملات التسع اللاحقة سوى حملات « صيانة » . ومن الواضح أن البلاد المفتوحة لم تحتلّ بكاملها . واكتفى الفرعون بأن أخذ أولاد الأمراء والزعماء المغلوبين إلى مصر حيث ربّاهم ثمّ اعادهم إلى

بلادهم كعملاء للمدنية المصرية . ان هذا الاسلوب لم يكن كافياً ، وسوف نرى أنه على الرغم من قوة مصر ظلّ وضعها في آسيا يستوجب غارات مسلحة جديدة لتقويته . وفي سنة ١٤٦٤ ، وكان تحوتمس ما يزال حياً ، قامت مملكة الميتاني بتكتل أخير ضد مصر بمساندة امراء قادش وامراء تونيب (وهي مدينة سورية محصنة قرب العاصي) ، ولكن المصريين قاموا بحملة جديدة وتمكنوا من استعادة قادش وتونيب . وسوف تلتزم آسيا الهدوء على الاقل حتى وفاة الملك سنة ١٤٥٠ .

وقد اغتنم تحوتمس الثالث في آخر حياته ظرف ثورة محلية قام بها السودانيون فذهب حتى الشلال الرابع . وبذا ففي سنة ١٤٥٠ كانت مصر تمتد من ناباتا على النيل الجنوبي إلى الفرات . وكان ذلك أوج سلطانها الذي راح بعد ذلك يتقلّص . لكن انجازات تحوتمس الثالث كانت على جانب من العظمة جعلتها تدوم ما يزيد عن قرن .

امنحوتب الثاني (١٤٥٠ – ١٤٢٥) : كان تحوتمس الثالث قد اشرك ابنه الأكبر في الحكم على حياته ليجنبه المتاعب التي قاساها هو في عهد حات شبسوت ، فخلف امنحوتب الثاني أباه بدون صعوبة . وكان عهده عهد سلام في الداخل وفي الخارج . وقد كان السوريون والفلسطينيون قد اغتنموا فرصة وفاة تحوتمس الثالث وحاولوا التمرد . لكن امنحوتب الثاني قمع ثورتهم وأمر باعدام سبعة زعماء سوريين كان قد أسرهم ابان حملته . ومن جهة أخرى فان الاوضاع في آسيا

كانت تميل نحو التطور . ان مملكة الميتاني التي كانت صاحبة الشأن اصبحت تخشى الحثيين المقيمين في الاناضول فدفعها ذلك إلى التقرب من المصريين .

تحوتمس الرابع (١٤٢٥ – ١٤٠٨) : لا ريب في أن تحوتمس الرابع لم يكن الابن الاكبر لأمنحوتب الثاني ولا نعرف كيف توصّل إلى الحكم . لكنه خلف والده بدون صعوبة . وكان عهده هادئاً كعهد سلفه . وقام بحملتين احداهما في السودان والثانية في آسيا ولكن هذه الحملة الاخيرة لم تكن حملة بالمعنى الصحيح بقدر ما كانت تفتيشاً . وكانت الاوضاع في آسيا قد تطورت كلياً لتفاقم الخطر الحي ، حتى ان الميتانيين اعداء مصر القدماء لم يعودوا يترددون في السعي وراء الحصول على صداقة الفرعون . فعقد تحالف بين البلدين، ولتوطيد هذا التحالف تزوج – على ما يعتقد – تحوتمس الرابع من أميرة ميتانية، مما جعل ابنه امنحوتب الثالث يحمل في عروقه دماً هندو أوروبياً .

امنحوتب الثالث (١٤٠٨ – ١٣٧٢) : خلف اباه بصورة طبيعية . وقد كان في بدء عهده يقوم كثيراً برحلات صيد ومن ثم قبع هادئاً في قصره . وقد تزوج من امرأة وضيعة النسب ، ولربما كانت اجنبية . وفي الخارج ذهب امنحوتب إلى السودان . ولا يبدو انه تدخل في آسيا حيث كان التحالف مع الميتانيين لم يزل قائماً. وكان ملك مصر يأخذ نساءه من مملكة الميتاني ومن بابل . ولكن تطور الاوضاع السياسية في

آسيا الذي كان بدأ في عهد جده، أخذ يسير بسرعة يوماً بعد يوم . فقد صار الحثيون يصطدمون بالميتانيين ولم يقو هؤلاء على صدّهم الا ّ بمساعدة القوات المصرية . وقد أدى تدخل هذه القوات إلى تحول الحثيين في آخر عهد امنحوتب الثالث ضدّ مصر ذاتها . وتبنى الحثيون سياسة الميتانيين في أيام تحوتمس الثالث، وشجعوا في سوريا تكتلا ضد مصر. وبذلك أصبح أمن مصر مهدداً، لكن وضع الممتلكات المصرية في آسيا لم يتعرّض للخطر الا ّ في عهد خليفة امنحوتب الثالث .

امنحوتب الرابع : اخناتون (١٣٧٢ – ١٣٥٥) : اشتهر امنحوتب الرابع ابن امنحوتب الثالث في التاريخ العام باسمي « الملك الهرطوقي » و« الملك المنشق » . وفي عهده طغى الدين على كل شيء . لكن الدين لم ينتظر عهد امنحوتب الرابع ليمثل دوراً في السياسة المصرية؛ وان الاصلاح الديني الذي قام به هذا الفرعون انبثق جزئياً من فكَر تكونت في ايام امنحوتب الثالث . ومنذ فجر السلالة قام الكهنة بدور مهم في شؤون الحكم . ومن الممكن ايضاً ان تكون « ثورة » امنحوتب الرابع الدينية عائدة لأسباب سياسية . ولسنا نقصد بذلك ان امنحوتب لم يكن مخلصاً في موقفه الديني . ولربما كان متصوفاً، لكن ليست لدينا وثائق يعتمد عليها للحكم على هذا الجانب من القضية، غير انه من الواضح أن الهدف الاول الذي توخاه كان التحرر من نير كهنة آمون . فقد سعى إلى ازالة عبادة الاله آمون من الوجود، فأقفل هياكله وشتت

كهنته وكان ذلك عملاً ثورياً بكل معنى الكلمة . ولم يكتف بهذا بل أنه ترك طيبة وجعل عاصمته في تل العمارنة في مصر الوسطى . وأخيراً استبدل اسم امنحوتب الحاوي على سم آمون باسم اخناتون، وأزال اسم آمون عن جميع الابنية ا عن الأطر المزخرفة التي تحمل اسماء الفراعنة السابقين، ومنحوتب الاول والثاني والثالث . وكان الدين الذي فرضه أعلى مصر يميل بشكل واضح إلى الوحدانية على الرغم من انه لم يضطهد سائر الالهة باستثناء آمون . وأصبح آتون، قرص الشمس، الاله الاول . ولم يبق من حاجة لتماثيل لعبادة هذا الاله، وهذه بدعة في مصر، فالعبادة صارت تتم في الهواء الطلق وتُوجه مباشرة إلى الاله الساطع نوره في الفضاء . وقد رأى بعضهم تأثيراً أسيوياً في هذه الديانة كما اعتقدوا أن الملك اعتنقها عمدا تشجيعاً لسياسة امبريالية في آسيا . غير اننا نستبعد ذلك لان امنحوتب الرابع لم يهتم كثيراً للأوضاع الخارجية، ولأنه لم يبتدع هو عبادة آتون . فقد كانت هذه العبادة موجودة في عهد أسلافه، ويتبين من نصوص الاهرام أن اسم آتون كان يُضفى على قرص الشمس . واخيراً يبدو أن الكهنة مثلوا دوراً في ثورة اخناتون الدينية . ويبدو ان الناحية السياسية كان لها الدور الحاسم في ثورة اخناتون . وكانت هذه الثورة قصيرة جداً ولعلّ عبادة آتون قد زالت عندما كان اخناتون ما يزال على قيد الحياة . ويبدو أن زوجة امنحوتب الرابع، نفرتيتي قد مثلت دوراً بارزاً في الثورة التي

قام بها زوجها . وان لم تكن قد شجعت قيام العبادة الجديدة فانها ظلت امينة لها بعد ان عدل عنها زوجها نفسه . وكان من نتائج عمل اخناتون ان اضعف السلالة، وقد استعاد كهنة آمون بعد وفاته كامل نفوذهم ،وفقد خلفاء امنحوتب الرابع بذلك هيبتهم . وشجع هؤلاء الكهنة انتقال العرش إلى سلالة جديدة . ثم ان التكتل الحثي اغتنم فرصة الاضطراب الذي رافق الثورة الدينية ليتابع تقدمه . فاستعاد ملك قادش السهل السوري في الشمال واستولى ملك الاموريين، وهو حليف آخر للحثيين، على مرافئ فينيقيا التي كانت تحتلها مصر . ولم تبدر من امنحوتب الرابع أية ردة فعل بل اكتفى بايفاد من يستقصي الوقائع في فينيقيا . ومما يذهل ان هذا الاخير ثبّت ملك الاموريين في الاراضي التي كان قد انتزعها من مصر، والتي لم تلبث ان شملت بيبلوس . وبالنتيجة اعترف امنحوتب الرابع بالامر الواقع وتظاهر باعتبار ملك الاموريين مولى له. وفي فلسطين ثار البدو بدورهم واستولوا على مجدّو ثم على أورشليم ، وعبثاً وجه أهل البلاد نداءاتهم نحو مصر، فلم يمدهم امنحوتب الرابع بأية نجدة . وأخيراً سقطت مملكة الميتاني حليفة مصر تحت ضربات الحثيين والاشوريين المتعاقبة. وعندما اشتد بأس الحثيين اكرهوا ملك الاموريين على توقيع معاهدة تحالف معهم، على الرغم من أنه كان يؤثر البقاء مستقلا في الوضع الذي ثبّته فيه امنحوتب الرابع . فحل إذن

النفوذ الحثي محل النفوذ المصري ولم يبق الا القليل مما أنجزه تحوتمس الثالث .

توت عنخ آتون — توت عنخ أمون : يكتنف الغموض خلافة امنحوتب الرابع وهو كملوك السلالة الاولين لم يخلف الا الإناث. ويبدو أنه في آخر حياته أشرك معه في الحكم زوج ابنته : سمنخ كارع ، وان الاثنين عادا إلى عبادة أمون .

أما نفرتيتي فقد بقيت في تل العمارنة وظلّت مخلصة لعبادة آتون . وقد توفي امنحوتب الرابع وسمنخ كارع في آن واحد تقريباً وعاد الملك إلى توت عنخ أتون زوج الابنة الثانية لامنحوتب الرابع ، وهو ما يزال بحديث السن ، وكان قد بقي بقرب نفرتيتي في تل العمارنة . وبعد ثلاث سنوات ترك توت عنخ أتون في ظروف غامضة تل العمارنة وتوجه إلى طيبة حيث اتخذ اسم توت عنخ أمون .

وظلت نفرتيتي وحدها، ولربما تآمرت عليه مع الحثيين ولكن بدون جدوى . وتوفي توت عنخ آمون في الثامنة عشرة بعد ان ملك تسع سنوات .

ولعل السياسة الخارجية المصرية لم تعد منذ آخر عهد امنحوتب الرابع بين ايدي الملك، بل كان يسيطر عليها قائد اسمه حورمحب طغت شخصيته الفذة على آخر عهد السلالة الثامنة عشرة قبل أن يستولي على الحكم . وكان منذ حكم امنحوتب الرابع ، قد استأنف القتال في آسيا وفي جنوبي فلسطين حيث وطّد ما استطاع انقاذه من وضع مصر .

وقد ملك عاي زوج ارملة توت عنخ أمون اربع سنوات ثم خلفه حورمحب الذي لا ينتمي بأية قربى إلى السلالة الثامنة عشرة. لكن مانيتون والمؤرخين ضموه اليها . وامر حور محب بازالة اسم توت عنخ أمون عن الابنية واستبداله باسمه وكان يحسب بدء عهده من تاريخ وفاة امنحوتب الثالث كما لو لم يكن لامنحوتب الرابع وسمنخ كارع وتوت عنخ أمون وعاي اي وجود . ويعتبر حورمحب المؤسس الحقيقي للسلالة التاسعة عشرة لانه هو الذي اختار أول فراعنة هذه السلالة .

السلالة التاسعة عشرة وتجديد السيطرة المصرية — لقد اصبح الجيش الذي نظمه الفاتحون الكبار من السلالة الثامنة عشرة يشكل قوة في الدولة المصرية، ولا يستغرب ان يكون قد مثّل دوراً هاماً في الحياة السياسية . وهو الذي مكن حورمحب من اغتصاب الملك . فلما شاخ حورمحب ولم يكن له بنون اختار عسكرياً آخر ليخلفه .

رعمسيس الاول (١٣١٤ — ١٣١٢) : عينه حورمحب فتبوأ العرش دون أية صعوبة . وكان أصله من تانيس في الدلتا، وكان قد اعتنق السلك العسكري؛ ولما كان متقدماً في السن عند تبوئه العرش أشرك معه فوراً بالحكم ابنه سيتي الاول، ليثبت السلطة الملكية في ذريته . وقد اتسم ملك رعمسيس الاول بالمباشرة ببناء قاعة الاعمدة الكبرى في الكرنك (طيبة) وبحملة إلى السودان بقيادة سيتي .

سيتي الاول (١٣١٢ — ١٢٩٨) : كان سيتي رئيس النبالين ووزيراً منذ ايام حورمحب؛ وبعد أن اشترك بالحكم مع أبيه تسلم العرش بصورة طبيعية . وتميّز عهده بالعودة

إلى سياسة الفتوحات في الشرق، وبفضله استعادت مصر عظمتها. وقد استعادت الامبراطورية المصرية نفوذاً كبيراً في آسيا غير انها لم تبلغ ما كانت عليه في عهد تحوتمس الثالث.

وقد اغتنم البدو فرصة انتقال الحكم إلى فرعون جديد، فثاروا واستولوا على المراكز المصرية المنتشرة على طول الطريق البرية من مصر إلى فلسطين. فقمع سيتي ثورتهم بعنف واستعاد المراكز ودخل فلسطين. وحاول اهل البلاد مقاومة المصريين بدافع من الحثيين. لكن سيتي قهر المتحالفين قبل آن يتيسر لهم الوقت الكافي لضم صفوفهم، ودخل سوريا حتى بلغ موازاة صور. واستعادت مصر مركزها المنيع في اسيا.

غير ان خطراً كبيراً مفاجئاً برز من جهة ليبيا على الحدود الغربية، التي ظلت هادئة منذ أيام المملكة القديمة. فان قبائل آرية كانت قد انتشرت في جميع انحاء اوروبا الجنوبية ثم عبرت البحر واستقرت في ليبيا، وأخذت تتسلل إلى مصر.

وتمكن سيتي الاول من صدها بسهولة. غير ان الخطر ظل قائماً. وسوف يثير مشكلات خطيرة في وجه خلفائه. وبعد ان اعاد سيتي الامور إلى نصابها تحوّل مرة اخرى نحو آسيا ليستأنف حملته. لكننا لسوء الحظ لا نعرف الا القليل عن هذه الحملة. ان سيتي الاول انتصر على الحثيين في موقعة

قادش ولكن هذا النصر لم يكن حاسماً فلم يمكنه من استعادة سوريا .

رعمسيس الثاني (١٢٩٨ – ١٢٣٥) : خلف والده بصورة طبيعية . واذا ما بنينا حكمنا على عدد الابنية التي تحمل اسمه فانه يبدو لنا اكبر البناة المصريين . والواقع أنه كثيراً ما انتحل ما بناه سواه ولم يكن يتورع عن ازالة اسماء اسلافه واستبدالها باسمه هو . واذا ما أضفنا الكثير الذي بناه إلى ما انتحله أدركنا سبب الذكرى الحيّة التي تركها في التاريخ العام، وادركنا الالتباس الذي وقع فيه الذين لم يميزوا بينه وبين سيزوستريس الاسطوري عند اليونان .

وتمشى رعمسيس على سياسة والده، فقاد حملة إلى السودان وقد يكون قد حارب الهندواوروبيين في ليبيا، لكن هذا الامر ليس ثابتاً . وفي سنة ١٢٩٤ انتقل إلى فلسطين وتوجه شمالا إلى موازاة بيبلوس . ومرة أخرى جابه الحثيون الجيش المصري بتكتل ضم عشرين شعباً . ولم يفلح المصريون في التغلب على المتحالفين كل على حدة، بل اصطدموا بجيشهم الموحد ودارت المعركة امام مدينة قادش . ونعرف معركة قادش بفضل المديح الذي امر الملك بتأليفه اشادةً بسلوكه فيها . وقد تمكنّا من تبيان خطة المعركة وحركات مقدمة الجيش . والواقع ان الجيش المصري أوشك فيها على الوقوع في كارثة لا سابقة لها . وكل ما استطاعه رعمسيس هو انه اعاد جمع قواته ولعله فرّق أعداءه. لكنه لم يتمكن من الاستيلاء

على قادش، كما انه لم يقض على الجيش الحثي الذي واصل حملته والذي اثار تمرداً جديداً في فلسطين بعد عودته إلى مصر. فرجع إلى فلسطين وأعاد السلام في بلاد كنعان (فلسطين) وانتزع مدينة تونيب من الحثيين.

وعندما بلغ رعمسيس هذا الحدّ تطوّر الوضع الخارجي بصورة مفاجئة اذ ظهر على مسرح آسيا شخص ثالث. ان ملك آشور اغتنم ظرف اقتتال المصريين والحثيين واستولى على الجزء الأكبر من مملكة ميتاني القديمة وتمركز على الفرات، حيث اصبح يهدد الامبراطورية الحثية والممتلكات المصرية معاً. فأدرك الحثيون والمصريون هذا الخطر واتفقوا فيما بينهم، وعقدوا سنة ١٢٨٧ ق.م. معاهدة هي في الواقع ميثاق تعاون متبادل. وتعهد المتعاقدان بان لا يعودا إلى القتال وان يتعاونا في حال تعرضهما لاعتداء من جانب ثالث. واتفقا اخيراً على تبادل اللاجئين السياسيين في بلد كل منهما. ولتوثيق عرى الاتحاد الجديد تزوج رعمسيس الثاني من اميرة حثية. لكن هذه المعاهدة فقدت فائدتها بسرعة بالنسبة إلى المصريين، لان الموجة الهندو اوروبية الثانية كانت تتقدم نحوآسيا الصغرى، وقد وفق الحثيون في ايقافها برهة من الزمن ولكنها سرعان ما غمرتهم واصبحوا عاجزين عن تقديم أي عون الى مصر.

منبطاح (١٢٣٥ — ١٢٢٤) : بدأ انحطاط مصر في عهد منبطاح، فقد ملك رعمسيس طويلا ولما آل الملك إلى منبطاح ابنه الثلاثين كان هذا قد تقدم في السن. وقد توصل إلى

المحافظة على هيبة مصر ولكن كل شيء سينهار بعد موته . وكانت حملة ليبيا ابرز حدث في عهده . فقد رأينا ان الهندو اوروبيين كانوا قد دخلوا ليبيا في عهد سيتي الاول . وقد تمكن زعيم احدى القبائل ومن توحيد جميع القبائل الآرية التي استوطنت ليبيا، ثم اخضع الليبيين الاصليين وتحول نحو مصر. ودخل الجيش الهندواوروبي وادي النيل شمالي غربي منفيس. واضطر منبطاح ان ينازلهم على الارض المصرية، فانتصر عليهم وولى الجيش الليبي هارباً. وتفيد وثيقة مصرية، حيث ظهر لاول مرة اسم اسرائيل، ان منبطاح قام أيضاً بحملة في آسيا. وليست لدينا أية معلومات عن هذه الحملة التي لم تزل موضع جدل .

اننا نختتم تاريخ مصر الكلاسيكية بعهد منبطاح أي في منتصف السلالة التاسعة عشرة . وربما بدى هذا التصرف اعتباطياً . لكن الواقع هو أن كل ما اضفى على مصر عزاً لا مثيل له سينقرض شيئاً فشيئاً بعد هذا الفرعون . فخسرت مصر اولا ممتلكاتها الاسيوية بصورة نهائية . ثم انفكت عرى الوحدة المصرية وهي القوة الوحيدة لامبراطورية مصر في افريقيا ـ كما حصل في الحقبتين المتوسطتين الاولى والثانية . وسنشهد قيام ممالك متعادية في مصر العليا وفي مصر السفلى .

ولكن هذه المرة لن يقوم في مصر سوى موحدين موقتين ، وستتفاقم الفوضى حتى تمسي مصر فريسة الممالك المجاورة : الاشوريين أولا، ثم الفرس، ثم اليونانيين وتاريخ هذا الانحطاط الطويل هو ما سنباشر دراسته الآن .

الفصل الثالث

الانحطاط

حوالي سنة ١٢٠٠ قبل المسيح، عندما قدمت حشود الهندواوروبيّين إلى ليبيا وإلى البحر المتوسط وآسيا ، انقلب توازن القوى . وقبل قدومها كانت مصر من جهة وبلاد ما بين النهرين من جهة أخرى، تشكّلان قطبي حضارة كبيرين ومستقلين في الواقع ، وبعيدين الواحد عن الآخر بعداً كافياً لتلافي الاصطدام . ومنذ بدء الألف الثاني قبل المسيح بدّلت موجات الهجرات الاولى هذا الوضع الذي كان مستتباً منذ مطلع الالف الخامس . ان قيام دولتين كبيرتين جديدتين في الشرق الاوسط (الحثيّون في الأناضول والأشوريّون على الفرات الأعلى) أرغم مصر على إنشاء جدار دفاع يمتدّ حتّى فلسطين وسوريا. ولكن عمّا قليل سيصبح هذا الجدار غير كاف لحماية وادي النيل . ولأوّل مرة في تاريخها ستُهاجم مصر من البحر وعلى الشاطئ المصريّ بالذات . طبعاً ستوفّق مصر وتنفي الأسطول المهاجم وتوفّر لنفسها فسحة بضعة أعوام . ولكن لم يعد بطاقتها ان تغيّر في توزيع القوى الجديد: فالبحر المتوسّط الذي بقي حتّى ذلك الحين منطقة جمود أصبح بدوره محور عبور وهجرات، وتحوّل إلى مركز حضارة

وانتهت عزلة مصر النسبيّة . لقد كان بوسعها حتّى ذلك الحين ان تنطوي على نفسها وتبقى إفريقيّة صرف، انما سوف تتقلص هذه الطاقة على ممرّ السنين . وأصبحت مصر طوعاً أو كرهاً عبر الدلتا، من بلدان البحر المتوسّط . وكان ينبغي ان ينتج عن تبدّل هذا الوضع تطوّر داخليّ، وان يتبع مركز الثقل السياسيّ في مصر تحوّل المدنيّات نحو المتوسط . ولكن شكل مصر المستطيل لم يسمح لها أن تنقل مركزها الإداريّ دون التعرّض للأخطار . وكان نقل العاصمة إلى الدلتا كما رأينا يعني حتما الثورة في الجنوب . وبدء الانحطاط يعود بلا شكّ إلى هذا المأزق الحرج . فكان على مصر لكي تراقب عالم البحر المتوسط وتقي نفسها أخطاره، ان تركّز قوتها في مصر السفلى وأن تجمع فيها كلّ طاقاتها البشريّة . أمّا إذا أصبح المركز الإداريّ بعيداً في الشمال، فإنّ مصر العليا وبلاد النوبة تستقلاّن نوعاً وتجرّدان السلطة الفرعونيّة من قوّتها . وكان أيضاً ثمّة عاملان ثانويان زادا في خطورة وضع لم يكن لمصر فيه حيلة . فقد كان لطيبة ولكهنة أمون فيها في أعين المصريين من الاعتبار ما جعلها تبقى حتماً تجاه الشمال مركزاً جذّاباً حال دون تأسيس عاصمة إداريّة في الدلتا . وأخيراً ان انعدام وجود زعماء كبار عجّل في سقوط مصر، ولو توافروا لربما تمكنوا بسطوتهم ومهارتهم من الإبقاء على مظهر الوحدة في هذا الجسم المستطيل الفاقد التوازن . وأمست بلاد امنيمهات وسيزوستريس فريسة لمن شاءها وظلّت هكذا

حتى أيامنا هذه . إنّ موقع مصر الجغرافيّ على مفترق الطرق جعل منها قبلة للغزوات المتواصلة . غير أنّ مساوئ هذا الوضع لم تظهر الا عندما صار حوض البحر المتوسط آهلاً ومتحضراً ومصدر اشعاع . وقد تحول مركز الحضارات في العالم إلى الشمال وكان هذا التحوّل كارثة بالنسبة إلى مصر . ولأول مرة في التاريخ حصل فيها مثل هذا الانتقال ، لكنّها لن تكون المرّة الاخيرة . وان نحن اقتصرنا على الاحداث التاريخيّة التي أثّرت في مدنيّتنا الغربيّة فإنّ الغزوات التي حصلت في القرون الأولى بعد المسيح واكتشاف العالم الجديد شكّلا تحولات مشابهة قلبت في كل مرة توازن المدنيات القديم ، فحطت ببعضها ودفعت بالأخرى إلى المركز الأوّل.

١ . نهاية السلالة التاسعة عشرة (١٢٠٠–١٤٠٠ق.م.) — عندما مكن منبطاح من صدّ هجمات الهندو أوروبيّين والليبيين عن الغرب ، كانت تقضي مصلحة مصر الحيوية باتّباع سياسة عسكريّة ناشطة . والواقع ان منبطاح لم يقضِ على العدوّ قضاءً تاماً بل شتّت شمله. ولسوء طالع مصر كان منبطاح آخر ملك عظيم في سلالته . فامينمس الذي خلفه كان مغتصباً للعرش ومنذ عهده بدأت الاضطرابات الداخليّة . وخلع امينمس منبطاح سبتاح وهذا بدوره خلعه سيتي الثاني الذي كان ولا شك ملكاً شرعياً . وتوصّل ابنه رعمسيس سبطاح إلى ان يخلفه على العرش ولكننا لا نعرف شيئاً عن ملكه. وتفاقمت الفوضى بعد موته ، واستقلّ حكّام الأقاليم ، ويظهر

أنّه لم يكن هنالك ملك ليتولّى الحكم المركزيّ . وتوصّل سوريّ يدعى يارسو الى أن يفرض نفسه ملكاً وكان ذلك برهاناً على ما وصل إليه تفكّك مملكة الفراعنة . وفي الخارج راح الهندو أوروبيّون في آسيا يتقدّمون نحو الجنوب والغرب بينما اغتنم هندو اوروبيّو ليبيا فرصة الفوضى في مصر ليستعيدوا تنظيمهم .

٢ ـ السلالة العشرون (١٢٠٠ ـ ١٠٨٥ ق. م.) — تندّد النصوص المصرية بالمغتصب السوريّ وكفره وطغيانه . وتوصّل مصريّ يدعى سيتناخت إلى خلع يارسو وربما استند في ذلك إلى ردة الفعل الشعبيّة أو إلى تشجيع كهنة أمون له وأسّس بذلك السلالة العشرين . وبالرغم من ضعف البلاد الناتج عن حقبة الفوضى الطويلة وفقت هذه السلالة واستعادت شيئاً من الاعتبار. انما يجدر بنا ان لا نخدع بذلك، اذ لم يكن الامر إلاّ انتفاضة وظلّ الانحطاط يتابع سيره دونما توقّف . وقد ملك سيتناخت مؤسس السلالة فترة قصيرة جداً وأشرك معه في الحكم ابنه رعمسيس الثالث الذي خلف أباه بدون صعوبة . وسيكون ملكه آخر ملك عظيم في مصر . ويظهر ان رعمسيس الثالث حقّق في الداخل إصلاح الإدارة وحتى اصلاح تنظيم مصر الاجتماعي بأسره . ومن المؤسف أننا لا نعرف شيئاً يذكر عن هذا الاصلاح . وكنا نودّ ان تكون لدينا معلومات عن التوزيع الطبقي للسكان الذي تمّ في هذا العهد كما تذكر ذلك بعض أوراق البردى . وإذا ما بنينا

حكمنا على ما جرى في عهد المملكة الرومانيّة السفلى الّتي قامت بإصلاح مماثل، فإن تبلور الوظائف الاجتماعية دليل انحطاط اكثر مما هو اعادة مثمرة للتنظيم . ومهما يكن من أمر فإنّ رعمسيس الثالث توصّل على الأقلّ إلى تقوية الجهاز العسكريّ، وهو أمر كان لا بدّ منه . والواقع أنّ الحثيّين في آسيا كانوا قد انقرضوا بعد أن قضت عليهم « شعوب البحر »، اي قبائل الهندو أوروبيّين القادمة من أوروبا والّتي كانت قد بلغت وقتئذ حدود فلسطين في زحفها نحو مصر .

اما في ليبيا فعاد هندواوروبيّو الغرب يهددون وادي النيل بعد أن نظّموا شملهم من جديد . ووُفّق رعمسيس في حملة أولى إلى صدّ القبائل الآريّة القادمة من ليبيا والّتي كانت قد تمكّنت من التسلّل إلى مصر ذاتها حيث باتت تهدد منفيس . وبعد تحقيق هذا الفوز اضطرّ الفرعون ان يجابه الموجة الأوروبيّة الأخرى القادمة من الشرق والشمال والّتي كانت تهدّد مصر من البر ومن البحر في آن واحد . ولم يتوفّر لدينا سوى القليل من المعلومات عن الحملة البريّة، ويبدو أنّ الجيش المصريّ تمكن من صد الهندو أوروبيين على حدود فلسطين، وسوريا أي بعيداً عن مصر بعداً كافياً. وتسرد لنا نقوش هيكل مدينة حابو (طيبة) وقائع النصر المصريّ في البحر الذي كان فاصلاً على ما يبدو . ومهما يكن من أمر فإنّ أسطول « شعوب البحر » دُمّر أمام شواطئ الدلتا ولم تعد له رجعة فيما بعد .

ويبدو أن انتصارات رعمسيس الثالث الأولى على الهندو أوروبيين في ليبيا لم تكن حاسمة ، إذ إنّه لم تكد تمر ستة أعوام على الغزو الأوّل حتى عادت قبائلهم وتجمعت تحت امرة رئيس واحد هو كابر ، الذي باشر بإخضاع بقايا السكّان الليبيّين الأصليّين وشدّد القبضة الهندوأوروبيّة على ليبيا. ولمّا فرغ من ذلك دفع بقبائله إلى فتح مصر ، ومرّة اخرى اصطدمت هذه القبائل بالجيش المصري في ضاحية منفيس . وكانت نصرة مصر هذه المرة حاسمة وأُسر كابر وابنه . ولن تحاول بعد ذلك القبائل الهندو أوروبيّة المضعضعة غزو مصر بقوة ، بيد أن مصر ظلّت تستهويها. فبدلا من ان تدخل وادي النيل دخول الفاتحين راحت تتسلل إليها تسلّلاً سلمياً ؛ لكثيراً ما كان الفراعنة والحكام المحليون الذين كانوا يسعون سد النقص بالرجال يستخدمونها كمرتزقة . وستتوصل بهذه الطريقة الى ان تصبح دولة ضمن الدولة وان تستولي على الحكم . وسيرتقي يوماً عرش مصر واحد من سلالة هؤلاء المحاربين المرتزقة .

وقد حاول رعمسيس الثالث بعد تغلّبه على « شعوب البحر » أن يعود إلى سياسة مصر التقليديّة ، حتى أنّه توصل إلى أن يتوغّل في سوريا ، لكنّ هذا التوغل لم يكن سوى غارة عابرة . فالشاطئ الفلسطينيّ ذاته بات يحتلّه الفلسطينيون وهم قبيلة هندو أوروبيّة. ولم يعد لمصر ولن يعود لها أن تمثّل في المشرق أيّ دور ذي شأن .

ويبدو أن مصر عادت تتخبّط في الفوضى بعد وفاة رعمسيس الثالث، ولربما حصل ذلك في حياته. فقد حيكت مؤامرة ضدّ الملك الشيخ ويبدو أنّ المتآمرين حقّقوا قسطاً من أهدافهم، اذ إنّ خليفة رعمسيس الثالث حاكمهم؛ فيفرض ذلك أنّ رعمسيس كان قد مات منذ زمن غير بعيد. ولا نعلم اذا كان مات مغتالاً أو إذا كان ابنه قد اقتص من المتآمرين قبل أن يتاح لهم الوقت الكافي للاستيلاء على الحكم. ومهما يكن من أمر فإنّ الانحطاط ازداد تدهوراً وكل ما نعرفه عن الملوك الثمانية الذين خلفوا رعمسيس الثالث (وقد حملوا جميعاً اسم رعمسيس، من رعمسيس الرابع إلى رعمسيس الحادي عشر) أنّ عهودهم اتّسمت بالاضطرابات الداخليّة وبالمجاعات. ومما يدلّ على ما آلت إليه الأُمور في تلك الأزمنة أنّ مدافن الملوك ذاتها عادت غير محترمة. وأخذ اللصوص ينهبون النواويس الملكيّة ليستولوا على الجواهر. ولم يبق للفراعنة المالكين من حيلة لحماية رفات أجدادهم سوى نقلها من قبورها ودفنها سراً في مخابئ جماعية. وإذا ما فكّرنا بأن الفرعون كان في نظر مصريي المملكتين القديمة والوسطى وحتى في نظر مصريي المملكة الحديثة إلهاً وملكاً في آن واحد، تبيّن لنا ما فقدته الملكية من اعتبارها وبالتالي من قوّتها. وأسفر ضعف الملكية عن ثورات لا سيّما في مصر الوسطى حيث لم يكن الليبيون الكثيرون في تلك البقعة غريبين عن هذه الثورات، كما

أسفرت عن ازدياد سطوة كهنة أمون في طيبة. غير أن رعمسيس الحادي عشر خلع رئيس كهنة أمون واحترس لمدة من الزمن من أن يعيّن من يخلفه . ولكنه ما لبث أن عين هريهور لهذا المنصب، وربّما فعل ذلك لأنّه لم يتمكّن من أن ينفرد في الحكم، أو لأنّه تأثر بضغط الكهنة أو لأنّه أراد أن ينعم على أحد المقرّبين إليه غير متحسّباً للعواقب . إن هريهور كان ولا شك عسكرياً وقد أدّى تعيينه إلى القضاء على السلالة . ونرى هريهور يأخذ تدريجاً كلّ شعائر الملكية. ولا شك في أنه ظهر في البدء بمظهر الموظّف الأمين، وبعد ان شغل منصب رئيس الكهنة أضاف إليه بفضل الحظوة الملكية منصب نائب ملك الكوش، فتمتّع بالسلطة على السودان، ثم منصب وزير الجنوب فحكم بذلك مصر العليا . وإن لم يبسط سيطرته على مصر بأسرها فقد بسطها على جنوبي البلاد، مما يحمل على الاعتقاد بأنّ كهنته كانوا يساندونه .

توارى رعمسيس الحادي عشر ولا نعرف تاريخ وفاته . وعند موته كانت مصر في الواقع مقسومة إلى شطرين : في الشمال كان وزير الشمال سمنديس الحاكم القويّ، وربما استمدّ من زوجته حقاً على العرش، وفي الجنوب كان الوزير القديم هريهور قد أخذ لنفسه كلّ الألقاب الملكية . ولم يتبادل الشمال والجنوب العداوة . ويظهر ان هريهور كان يحسب نفسه تابعاً لسمنديس لكنّه بوصفه ملك مصر العليا، وخصوصاً بوصفه الرئيس الحقيقيّ لكهنة أمون، كان السيد

المطلق في بلاد طيبة وفي جنوب البلاد ؛ وقد حرص هريهور على أن يعيّن ابنه بيانكي على رأس كهنة أمون .

٣ ـ السلالة الحادية والعشرون (١٩٨٥ ـ ٩٥٠ ق. م.)ـ

كان هريهور متقدماً في السن عندما استلم زمام الحكم في الجنوب. واذا افترضنا أنّه أراد ضمّ الشمال إلى تاجه فلم يتح له الوقت لتنفيذ مآربه؛ وبقيت مصر عند موته مقسومة بين سلطة فعليّة في مصر العليا على رأسها بيانكي ابن هريهور، وملك في الشمال شرعي ولا ريب هو سمندس . وقضت الظروف بان يصبح سمنديس موسس السلالة الحادية والعشرين التي ستكون عاصمتها تانيس في الدلتا الشرقية . وفي واقع توفّي سمنديس كما توفّي هريهور دون أن يغيّرا شيئاً في حالة مصر . وترك ملكه لبسوسينيس الاول لكن هذا الاخير لم يرزق ابناً ذكراً فزوج ابنته ماكاري، التي تعود اليها وراثة العرش حسب العادة المصرية، من ابن بيانكي الذي كان لم يزل رئيس كهنة أمون. والذي كان يحكم هذا الواقع صاحب السلطة في مصر العليا . وسيرث إذن ابن بيانكي السلطة في الجنوب من ابيه والملك في الشمال من زوجته. ولما تسلّم زمام الملك باسم بينَدجم الأوّل بدا أنّ وحدة مصر ستتحقق من جديد . ولكن عوامل التفسّخ كانت أقوى من أن تُعاكس بمثل هذه السهولة . لقد حاول بيندجَم الأوّل ان يسكن في الشمال وان يحتفظ بسلطته في الجنوب وذلك بتسمية ابنائه روساء كهنة أمون، ولكن عند

وفاة ابنه البكر يبدو أن الثورة نشبت في طيبة فعيّن بيندجم ابنه الثاني رئيساً لكهنة طيبة لكنّ هذا الأخير واسمه منكيبيري استولى على الحكم بنفسه، وأفسد نهائياً حسابات ابيه ولم يلبث أن أعلن نفسه ملكاً. وبهذا، وبالرغم من محاولات بيندجم عادت مصر وانشطرت إلى قسمين لسوء مصلحة البلاد كلها، إذ إنه لم تعد لرئيس كهنة أمون القوة الماديّة التي كانت له في أيّام السلالتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وفرغت الخزينة إذ لم تعد تأتيها من الخارج الجزية التي كانت حروب الفراعنة المتواصلة تجلبها، ولم يعد أمامها إلاّ أن تعتمد على مداخيل أراضي الهيكل، ويجب الافتراض ان الكهنة كانوا يمتصّون القسط الأوفر منها. وظلّت السلالة بعد وفاة بيندجم منقسمة على ذاتها. ففي تانيس والشمال حكم امينيموبي اولا ثم خليفتاه سيامون وبسوسينيس الثاني، بينما خلف في طيبة اولاد منكيبيري أباهم بعد موته. وحمل هؤلاء الأسماء ذاتها التي حملها ملوك الشمال ونعرف واحداً باسم بيندجم كان معاصراً لسيامون. بيد أنّنا لا نعرف الا القليل عن هذه الحقبة، وكنّا نودّ أن نعرف بصورة خاصة العلاقات التي كانت تربط الجنوب بالشمال. ولا شك في أن الاكتشافات الحديثة التي حققها ب. مونتيه في تانيس ستسمح إلى حد بعيد بالقاء النور على هذه القضية. إن ثمّة امراً بارزاً في آخر أيّام السلالة الحادية والعشرين وهو أنّه يُعترف رسمياً بانقسام مصر ولم يكن هذا الانقسام إلاّ وضعاً ناجماً عن الظروف.

ان الملوك التانيين كانوا ملوك مصر الشرعيين، وفي طيبة لم يتخذ أبناء منكيبيري لنفسهم الألقاب الملكية . ولم يكن انقسام مصر غير الراهن من جهة اخرى الصدع الوحيد في البناء السياسيّ : ففي هيراكليوبوليس في مصر الوسطى استولت أسرة من أصل ليبيّ على السلطة المحليّة وتعاظم شأنها يوماً بعد يوم، إلى أن حلت محل الملوك التانيّين وأسّست السلالة الثانية والعشرين :

٤ ـ السلالة الثانية والعشرون (٩٥٠ ـ ٧٣٠ ق. م.) ـ

ان هذه السلالة الليبية الاصل تشكل نوعاً ما ديكتاتوريّة عسكريّة . ولمّا كان العنصر العسكريّ المصريّ الصافي يتقلص شيئاً فشيئاً، بات المرتزقة الليبيّون وحدهم يشكلون الجيش . وبقدر ما كانت البلاد ضعيفة من جراء قسمتها بقدر ذلك كانت سلطتهم كبيرة. انهم يمثّلون القوّة المسلحة وسوف يستفيدون من ذلك ويغتصبون السلطة العليا. وقد كنا نتوقّع ان نشهد في عصرهم إعادة بناء الوحدة السياسيّة، كما يحدث بصورة عامة عندما تستولي على الحكم أقليّة عسكريّة . ولكنّ شيئاً من هذا لم يحدث . فقد كانت السلالة الثانية والعشرون منقسمة وضعيفة كالسلالة التي سبقتها . وكانت لذلك اسباب عدة، منها أوّلا أنّ المرتزقة الليبيين الذين استقروا في مصر منذ أيّام السلالة العشرين تمصروا على ممرّ الأجيال، وبزواجهم المتكرر من المصريّات فقدوا وحدة طباعهم العرقيّة التي كانت تشكّل جزءاً من قوتّهم . وبما

أنّهم كانوا أقلّ تطوّراً من المصريّين فقد تبنّوا مدنية أسيادهم ولم تبق لهم تقاليد خاصة بهم تميّزهم عن المصريّين وتعزلهم عنهم وتمكّنهم من السيطرة عليهم. فهم مصريون من أصل أجنبيّ وليسوا أجانب. واخيراً فان اسباب اختلال التوازن بين الجنوب والشمال كانت أعمق من أن تتمكّن سلطة مغتصبة كسلطة السلالة الثانية والعشرين من مداواتها.

ان أسرة شيشونك التي ينتمي اليها ملوك هذه السلالة تعطي مثلا ممتازاً عن سياق التمثّل الذي خضع له الليبيّون في مصر. فاسم شيشونك ليس مصريّاً، ولذلك فان أبناء هذه الأسرة كانوا على الأرجح من أصل ليبيّ صرف، وكانوا قد استوطنوا في بقعة هيراكليوبوليس على تخوم ليبيا: ونراهم يتمصّرون قبل أن يستولوا على الحكم في هيراكليوبوليس، وبعد أن كانوا رؤساء عسكريين فقط صاروا كهنة الاله المحلّي هارسافيس وبهذه الصفة طلبوا أن يُدفنوا في ابيدوس كالمصريّين. وما لبثت سلطة هذه الأُسرة أن امتدّت من هيراكليوبوليس إلى بوباتيس في الدلتا الوسطى. وعند وفاة بسوسينيس الثاني اتخذ شيشونك لنفسه اللقب الملكي، ولكي يضفي على سلالته الصفة الشرعية زوّج ابنه اوزوركون من ابنة بسوسينيس.

ويرجّح أن الدكتاتوريّة العسكريّة الليبية أدّت إلى نشوب اضطرابات في البلاد، لكنّنا لا نستطيع أن نعلم مدى امتداد الثورة. ويبدو أنّها ارتكزت على ناحية طيبة وليس

من المستحيل أنّ قسماً من كهنة طيبة اختار حينئذ الهجرة إلى السودان مع أنّه ليس لدينا أيّ اثبات على ذلك .

انّ الشمال الذي أصبح الآن مركز الثقل الحقيقيّ في مصر اجتذب الملوك الليبيين بصورة لا تقاوم، فتركوا ناحية هيراكليوبوليس ويبدو أنّهم استوطنوا الدلتا . ومنها جيّش شيشونك الأوّل حملة على فلسطين واستولى على أورشليم ونهب هيكلها. وبهذا أعاد قسطاً من شأن مصر في آسيا، ولكن لم يكن لعمله غد، ولم يكن الأمر فتحا حقيقياً لفلسطين. وكانت النتيجة العمليّة الوحيدة لهذه الحملة تقديم الغنائم الطائلة إلى الهياكل المصرية .

وما تزال خلافة شيشونك الأوّل غامضة للغاية لانعدام الوثائق، ولم يكن استيلاء الليبيين على الحكم قد غيّر شيئاً في انقسام مصر انقساماً ضمنياً بين الجنوب والشمال . وكلّ ما في الأمر أنّ شيشونك الأوّل رجع إلى سياسة أسلافه وحاول أن ينتزع لمصلحته نفوذ كهنة أمون، فعيّن على رأسهم أحد أبنائه . وسيحاول خلفاؤه الاقتداء به . لكنّ مساعيهم فشلت أيضاً كما فشلت مساعي ملوك السلالة الحادية والعشرين، واولادهم الذين عيّنوهم على رأس كهنة طيبة حاولوا دائماً أن يؤسّسوا في الجنوب سلالات منافسة للفرع البكر الحاكم في الشمال . وقد حاول الفراعنة لكي يقاوموا هذا الميل التقليل من نفوذ كبار كهنة أمون بإحداث لقب دينيّ جديد هو لقب « زوجة الإله » او « عابدة أمون الالهيّة » . وكانت

دائماً أميرة من الاسرة المالكة . وكانت النتيجة أن استولت العابدات على سلطة رؤساء الكهنة، ولم يكن أكثر أمانة منهم للسلطة المركزية، وكذلك ظلّت مصر مشطورة شطرين . وفي آخر أيّام السلالة الثانية والعشرين نرى طيبة تثور مرّتين ثورة علنية على ملوك الشمال، ممّا يدلّ على أنّ استقلال الأوساط الطيبية عن العرش كان قد تزايد .

٥ ـ السلالات الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون والخامسة والعشرون (٨١٧ ـ ٦٦٣ ق. م.) ـ في عهد آخر ملوك السلالة الثانية والعشرين تفاقمت الفوضى واتّجهت مصر نحو التفسّخ المتزايد خصوصاً في الدلتا . وهكذا تأسّست السلالة الثالثة والعشرون قبل انقراض سالفتها، وكانت السلالتان لبرهة من الزمن معاصرتين . ومن أسماء فراعنة السلالة الثالثة والعشرين يبدوباست ، وشيشونك الخامس وأوزوركون الثالث وتاكيلوت الثالث، ويمكن القول بأن هذه السلالة كانت تنتسب إلى السلالة الثانية والعشرين . وكانت عاصمة السلالة الجديدة بوباستيس، حيث كانت عائلة شيشونك مستوطنة حتّى من قبل ما استولت السلالة الثانية والعشرون على الحكم . وهكذا فان القسمة شمالاً وجنوباً اقترنت بقسمة شرقاً وغرباً في الدلتا ، ولم يقف التفسخ عند هذا الحد. فالى جانب السلالتين المعاصرتين يبدو أن زعماء محليين تكاثروا في الشمال إلى أن ارتقت العرش السلالة الرابعة والعشرون . ومع ان هؤلاء الملوك الصغار لم يناصبوا بعضهم

العداء، فإنّ تفتّت السلطة هذا كان خطراً على مصر التي استحال عليها ان تجنّد جيشاً قويّاً وان تؤمّن أعمالاً ذا طابع اقتصاديّ عام ضروريّة لازدهار البلاد. ونحو عام ٧٣٠ ق.م. كان الوضع مشوّشاً. ففي الدلتا كان فراعنة السلالة الثانية والعشرين والسلالة الثالثة والعشرين يقتسمون السلطة يشاركهم المغتصبون المحليّون وأكثرهم من العسكريين الليبيين. وفي مصر الوسطى يستحيل ان نتميز ما كان خاضعاً لفراعنة السلالة الثانية والعشرين مما كان خاضعاً لفراعنة السلالة الثالثة والعشرين، دون أن تقوم مع ذلك عداوة بين السلالتين. وفي مصر العليا كان رئيس الكهنة وعابدة أمون الإلهيّة، اللذين ينتسبان إلى فراعنة الشمال قابضين على زمام الحكم في طيبة ومستقلّين عن السلطة المركزيّة. وفي السودان يفترض ان بعض افراد كهنة أمون، الذين ربما كانوا قد هاجروا إلى هناك في أوّل عهد السلالة الثانية والعشرين، قد اقاموا امارة مستقلة مركزها ناباتا. ومن المعقول ان عهّال هذه المملكة الجديدة لم يكونوا سوى سودانيين. فمصر اذن كانت مقسّمة أكثر ممّا كانت عليه في أيّ وقت آخر ولكنّ حركة مزدوجة نحو التمركز كانت على وشك الحدوث.

• حوالي عام ١٧٥١ استولى بيانكي على الحكم في ناباتا في بلاد النوبة العليا. وهذا الاسم لا يدلّ حتماً على أصل مصريّ. فخلال القرنين اللذين كان المصريون قد استوطنوا فيهما بلاد النوبة ذابوا ولا شك بين السكان السودانيين، ومن

المؤكّد أن بيانكي حكم على شعب من السودانيّين الصافين . ومن أسماء أجداد بيانكي يبدو أنّه هو بالذات لم يكن مديناً لمصر بشيء . لذلك فان السلالة التي أسّسها تدعى السلالة الإثيوبيّة . وسيحاول بيانكي ان يفتح مصر منطلقاً من الجنوب . وفي الطرف الآخر من البلاد في الدلتا باشر تفناخت امير سائيس باعادة توحيد البلاد حوله . ويبدو انه لجأ إلى الاقناع أكثر ممّا لجأ إلى الفتح بالعنف . فجعل الأمراء المحلّيين يعترفون بسلطته، ولقاء هذا الاعتراف ثبّتهم في مراكزهم بصفة أتباع له . وبعد أن وحّد تفناخت مصر السفلى دخل مصر الوسطى حيث اصطدم ببيانكي القادم من الجنوب .

ولسنا نعرف الصراع بين الشمال والجنوب الا بواسطة وثيقة واحدة فقط، وهي مسلّة بيانكي التي تعطينا الرواية الجنوبية عن الأحداث، ولذا فلا تعتبر مصدراً موثوقاً به . ففيها يتباهى بيانكي بانه قهر تفناخت وأعاد فتح مصر حتى أقاصي الدلتا البحريّة . وفي الواقع إذا كان من المعقول أنّه طرد تفناخت وأتباعه من مصر الوسطى واسترجع منفيس، فمن المشكوك فيه أن يكون قد ذهب إلى أبعد من ذلك . ونحن لا نرى بيانكي بعد انتصاره المزعوم يعود فوراً إلى عاصمته ناباتا وحسب، وهذا بحدّ ذاته أمرٌ غريب حقّاً، بل لدينا فوق ذلك البرهان على أنّ تفناخت كان لم يزل سيّد الدلتا بضعة سنوات بعد الفتح الإثيوبي المزعوم . ومهما يكن من أمر فإنّ

تفناخت هو مؤسّس السلالة الرابعة والعشرين التي تتألف من ملكين فقط: تفناخت وبوكخوريس. وقد حكما في الشمال بينما حكم بيانكي والسلالة الخامسة والعشرون أو السلالة الاثيوبية في الجنوب ولربما امتدت سلطتها حتى منفيس. فتكون السلالتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون قد حكما في آن واحد ولم تتحقق الوحدة.

في الشمال خلف بوكخوريس والده تفناخت. ويقال عنه إنه كان مشترعاً ولكنّنا لا نعرف عنه سوى أنّه حرّض في فلسطين ثورة على الآشوريّين، وأنه ساند هذه الثورة بفصيلة مصريّة هزمها الجيش الآشوري. أمّا هو نفسه فقد قُتل اثناء غزو الجيش الإثيوبي بقيادة شباقا للدلتا.

وفي الجنوب لا شكّ في أن شباقا خليفة بيانكي حكم مصر حتى طيبة، ولربما حتى منفيس، وفي طيبة كانت عابدة آمون الإلهيّة قد أصبحت من أصل سوداني. وعلى كلّ فإنّ شباقا ترك ناباتا وأقام في طيبة. ومنها قام بفتح مصر السفلى الذي كان بيانكي قد عدل عنه. ويبدو أنّه نجح في مشروعه ولكنّنا لا نملك أيّ تفصيل عن هذا الفتح الذي قتل بوكخوريس أثناءه. ولمّا تمّ الفتح لشباقا أقام في الشمال، وخلافا لتفناخت وابكخوريس لم يحاول أن يجابه آشور. ولما انقرضت السلالة الرابعة والعشرون حكمت السلالة الخامسة والعشرون مصر منفردة، إسميا على الأقلّ، إذ يبدو أنّ السلام لم يستتبّ أبداً في البلاد بأسرها.

خلف شباقا شباتاكا ثم طَهَرها . وقد عاد كلاهما إلى النشاط السياسيّ في آسيا وشجّع في فلسطين الثورات على آشور . لكنّهما لم يُوفقا في سياستهما أكثر ممّا وفق بوكخوريس، وكان من الأعجوبة أن الجيش الآشوري بعد أن تغلّب على التكتّل الفلسطيني لم يدخل أورشليم ولم يقض على الجيش المصريّ (ويبدو ان الطاعون قد أجبر الآشوريين على العدول عن القتال) .

وقد اضطر طهركا لكي يراقب الحالة في البحر المتوسط، كما اضطر سلفاه، إلى أن يُقيم في مصر السفلى، ويبدو انه سكن تانيس . وكان إذ ذاك بعيداً جداً عن مصر العليا لكي يتمكن من أن يحكمها بجدوى، ولكنه حاول ان يكتسب على الأقل اخلاص الجنوب . فخرج على التقاليد ولم يشأ ان يترك كلّ السلطات لكهنة أمون بل عهد بقسم منها إلى حاكم دعي حاكم الجنوب واسمه منتويمحات . وبذا نرى أنّ السلطة الروحية فصلت عمداً عن السلطة الزمنيّة لأسباب سياسيّة .

٦ ـ الفتوحات الآشورية ـ الفتح الاول (٦٧١ ق . م.) ـ لم يتّعظ طَهَركا من فشله في فلسطين وظلّ يحرّض من تانيس على الثورات ضدّ الآشوريّين . وفي سنة ٦٧١ قرّر أسرحدّون ملك آشور مهاجمة مصر بالذات. فتجنّب الدلتا حيث كانت القوات المصريّة محتشدة ولا ريب، وسار عبر سينا ومشى نحو منفيس ودخلها . ثم اتّجه نحو الدلتا

فأخذها من الوراء وأخضعها . وتمكّن طَهَرَكا أولاً من اللجوء إلى طيبة، ثم لما راح أسرحدّون يهدّد هذه المدينة فرّ في الوادي نحو الجنوب بينما سارع منتويمحات إلى الاعتراف بالسيادة الآشورية ليتجنب سقوط طيبة . وغادر أسرحدّون مصر بسرعة ولم يترك وراءه سوى قوّات قليلة . فاغتنم طَهَرَكا الفرصة وأثار الحكّام المحليين الذين كانوا قد خضعوا إبّان الفتح واستعاد منفيس .

الفتح الثاني (٦٦٦) — ولما كان أسرحدّون قد مات استأنف ابنه آشوربانيبال القتال ضدّ مصر، ولم تكن قد مضت ثلاث سنوات على استعادة طهركا لمصر . وفي عام ٦٦٦ سقطت منفيس من جديد وواصل الجيش الآشوري هذه المرة زحفه حتّى طيبة، واستولى عليها، ونفى إلى نينوى حكام الدلتا الذين كانوا قد ثاروا على الآشوريين سنة ٦٧١ . ومات طهركا بعد انكساره بمدّة قصيرة وترك الملك لابن اخيه تانوتامون الذي تُوّج في ناباتا . ونجح تانوتامون كما نجح عمّه في اثارة مصر على الآشوريّين ، ولكنّ استعادته لمصر كانت قصيرة الأمد مثلما حدث سنة ٦٧١ .

الفتح الثالث (٦٦٤) — لم يلبث الآشوريّون ان عادوا إلى مصر بعد طردهم منها مرة ثانية . ونحو سنة ٦٦٤ دحروا تانوتامون وقذفوا به إلى مصر العليا واحتلّوا طيبة للمرّة الثانية ونهبوها . ولجأت السلالة الإثيوبيّة إلى السودان ولم تعد تحكم في مصر، ولكنها ستدوم عدة قرون في ناحية ناباتا —

مروى حيث ستملك على شعب ليس له أيّة صفة مصرية، فاللغة هي افريقية صافية والكتابة تختلف عن الهيروغليفية مع ان التأثير المصري كان قوياً جداً . وستحافظ هذه المملكة على استقلالها حتى سنة ٣٥٠ بعد المسيح .

٧. **السلالة السادسة والعشرون وطرد الآشوريين (٦٦٣ – ٥٢٥ ق . م.)** – ان تطور الوضع السياسي وتحوّل محور المدنيّات اللذين أشرنا إليهما في أوّل هذا الفصل أخذا يتّضحان أكثر فأكثر . والدور الذي كان المتوسطيون مدعوين لتمثيله والذي كان كامناً منذ غزوة شعوب البحر أخذ يرتسم بدقة . إن مصر العاجزة عن ان تتحرّر بذاتها من نير الآشوريين ستعتمد على اليونانيين الذين استخدمتهم كمرتزقة . ولمّا اتضح لمصر أنّ هذه المساعدة لن تفلح في حمايتها من آسيا استقبلت فتح الاسكندر غير مبالية . وهكذا تخلّت مصر عن استقلال ماضيها، ولكن قبل ان يصبح فقد حريتها أمراً راهناً ستعرف مرة اخيرة حقبة من العظمة بفضل فراعنة السلالة السادسة والعشرين . إنما تجدر الإشارة إلى أنّه ابتداء من تلك الحقبة لن تعود مصر مستقلة بفضل جيشها الخاصّ، بعد أن حُرمت من موارد إفريقيا البعيدة، بل بفضل استخدامها للمرتزقة الاجانب الذين هم وحدهم كانوا قادرين على حمايتها من الممالك الاسيوية القويّة من جهة، وعلى فرض الطاعة على رعايا الفرعون من جهة أخرى.

بساماتيك الأوّل (٦٦٣ – ٦٠٩ ق. م.) الفرعون الاول من السلالة السادسة والعشرين أمير من سائيس في الدلتا حيث خلف أباه نخو.

وهو حفيد بعيد لتفناخت الذي كان أيضاً امير سائيس ومؤسس السلالة الرابعة والعشرين: فله إذن حق في العرش. ومنذ بداية حكمه اعتمد على المرتزقة اليونانيين وبفضلهم طرد الآشوريين من مصر وطاردهم حتى فلسطين. وفي سنة ٦٥٣ كانت البلاد قد تحرّرت ولا ريب، فيكون الصراع إذن قد دام نحو عشر سنوات. وفي ذات الوقت، وبمساعدة اليونانيين أيضاً، قضى بساماتيك على الزعماء المحليّين الذين كانوا يتقاسمون مصر السفلى. فتمكّن عندئذ من الشروع في إعادة تنظيم المملكة بأسرها. وفي مصر العليا كان منتويمحات لم يزل حاكم طيبة منذ أيّام الملوك الاثيوبيين. وبعد مفاوضات حمل بساماتيك عابدة آمون الالهية الّتي كانت ما تزال من أصل سوداني على ان تتبنّى ابنته نيتوكريس. وبعد أن رسّخ نفوذه عيّن حاكمين جديدين احدهما في الجنوب في ادفو، والثاني في مصر الوسطى، في هيراكليوبوليس، فكانت هذه أوّل محاولة متماسكة لوضع حد لاستقلال مصر العليا الفوضويّ عن السلطة المركزيّة. لقد أعيد توحيد مصر. ومن الممكن أن يكون الفتح الآشوري قد أعطى المثل والبرهان على حسنات وجود سلطة مركزيّة قويّة وأن يكون قد اسهم بهذا في إعادة بناء الوحدة المصرية. ولكن ليس لهذه الوحدة

أي وجه شبه مع ما كانت عليه في الحقبات العظمى من تاريخ مصر . فالذين يؤمّنون سلطة بساماتيك على رعاياه هم مرتزقة يونانيون أجانب . وهو مدين لليونانيين أيضاً بترسيخ سلطة مصر العسكريّة تجاه الاسيويّين ، وهم الذين يشكّلون إطار جيشه، وحتّى الاسطول المصري فقد أعيد تنظيمه على المثال اليونانيّ . وتحوّل ايضاً اقتصاد البلاد الداخلي من جرّاء إقامة مستعمرات يونانية . فيكون اذن ان مصر لم تتوصل لتكييف ذاتها مع الظروف الجديدة في العالم القديم إلاّ بتخلّيها عن تقاليدها الخاصة .

نخو (٦٠٩ ــ ٥٩٤ ق. م.) : ابن بساماتيك الأوّل خلف والده بدون صعوبة وقد استند كأبيه على الأجانب وأعاد فتح قناة البحر الأحمر وهو مشروع وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، او على الاقل باشر هذا العمل . وهذه القناة هي النموذج السابق لقناة السويس . وأوعز نخو، إلى الملاّحين الفينيقيين الذين كانوا بخدمته فقاموا بسفر حول إفريقيا .

ولما كان نخو قد وطّد سلطته في مصر فلم يتمالك عن العودة إلى اتّباع سياسة مصر التقليديّة نحو آسيا . ولم يرَ أن الزمان كان قد تحوّل وأن مصر لم تعد تملك القوّة الكافية لتجابه ممالك آسيا المركّزة القوة . ومن جهة أخرى فإن الأوضاع كانت قد تطورت مرّة اخرى في الشرق الأدنى . فآشور التي كانت مسيطرة حتّى ذلك الحين كانت قد فقدت هذه السيطرة أمام الفرس وبابل المتحالفين . وقد استغنم نخو

فرصة النزاع القائم بين الفرس والبابليين والآشوريين، ودخل بجيشه إلى آسيا ، وكسر ملك يهوذا في معركة ماجدّو وأخضع فلسطين وسوريا وتوغّل حتى نهر الفرات . ولمّا وصل إلى هناك اصطدم بنبوكدنصّر ابن ملك بابل . ودُحر الجيش المصري في قرقميش . ولحسن حظ نخو اضطرّ نبوكدنصّر للعودة إلى عاصمته بسبب وفاة أبيه ولم يستطع أن يستثمر انتصاره . وتمكّن نخو من العودة بدون صعوبة إلى مصر واغتنم فرصة الاضطرابات الداخلية في بابل ليحرّض على التكتّل ضدّ نبوكدنصّر ، ولكنّ هذا الاخير بعد أن أعاد الأمن إلى بلاده، تغلّب بسهولة واستعاد فلسطين. ويبدو أن نخو عدل في آخر أيّام ملكه عن محاربة بابل، في البرّ على الأقلّ ، إذ إنّه بنى أسطولا بمساعدة اليونانيين مما يدل على عزمه على استئناف القتال بحراً . ولكنه توفّي قبل أن يتمكّن من تنفيذ خططه .

ولا نعرف عن بساماتيك الثاني (٥٩٤ ــ ٥٨٨) خليفة نخو سوى أنّه قاد حملة ضدّ السودان وبلغ الشلاّل الثاني إن لم يكن بالأرجح الشلاّل الرابع ، وأنّه قام بسفرة إلى فينيقيا. ولا يبدو أنّ فتح السودان الذي تمّ بمساعدة الفصائل اليونانية والأسيويّة دام طويلا .

وقاتل أبرياس (٥٨٨ ــ ٥٦٦) الذي خلف بساماتيك الثاني الفينيقيين وحاصر صور بدون جدوى . ونحو سنة ٥٧٠ تدخّل في ليبيا تدخّلا غير موفّق كان القاضي على

ملكه. والواقع أنّ الليبيين استنجدوا به ضدّ اليونانيين المقيمين في القيروان ولم يتجاسر أبرياس ان يخوض بمرتزقة يونانيين حرباً ضدّ يونانيين، فأرسل إلى ليبيا جيشاً مصريّاً وهُزم هذا الجيش فاستفاد امازيس، القائد الذي كلفه أبرياس بإخماد الثورة، من الاستياء الذي عمّ بعد هذه المغامرة، وتزعّم العصيان على مليكه. ويبدو أن الحرب ظلّت سجالا لمدة طويلة بين أبرياس وأمازيس، وأنهما تقاسما البلاد فترة من الزمن، ثم تغلب أمازيس وأزاح ابرياس نهائياً عن الحكم.

وعلى الرغم من أنّ الشعور بالكره ضدّ الأجانب قد سهل أمام أمازيس (٥٦٨ — ٥٢٥) اغتصاب العرش فإنّه احترس من أن يكدّر اليونانيين الذين كانوا عماد جيشه، وهذه كانت حالهم في عهد سائر ملوك هذه السلالة. ولما كان نبوكدنصّر قد استأنف الحرب ضدّ مصر، خاض أمازيس معركة يبدو أنها كانت خاسرة إنّما لم يتبعها غزو لمصر. ويؤكّد المؤرّخون اليونانيون أنّ أمازيس استولى على جزيرة قبرص وليست لدينا وثائق مصريّة تُثبت هذا الفتح. وقبيل نهاية ملكه كان الفرس، من جرّاء توسعهم المتواصل، يهددون الشرق الادنى بأسره. فتحالف أمازيس مع كريزوس ملك ليديا ومع اسبارتة وبابل، ولسوء حظه انهار حلفاؤه الواحد تلو الآخر امام الجيش الفارسيّ، فسقطت ليديا أوّلاً ثمّ بابل. ولما تحوّل الفرس شطر مصر تُوفي

أمازيس، وخلفه بساماتيك الثالث الذي لاقاه قمبيز وقهره، رغم وجود المرتزقة اليونانيّين، في معركة بلوزة (٥٢٥ق‌م).

إن السلالة السادسة والعشرين التي انقرضت بعد معركة بلوزة نجحت في إعادة الوحدة والازدهار إلى مصر. والانجازات الداخلية التي حققها فراعنة هذه السلالة جديرة بأن تدرس بعناية. فقد توصّلوا إلى استعادة سلطانهم على البلاد بأسرها باجراء تنقّلات حكيمة بين الموظفين. واستفادت مصر تواً من عودة الازدهار فعرفت نهضة فنّيّة حقيقية، وكانت تلك حقاً أنشودة الوداع لمصر القديمة.

٨. السيطرة الفارسيّة الأولى (السلالة السابعة والعشرون ٥٢٥ ـ ٥٠٥ ق.م.) ـ انسحب الجيش المصريّ إلى منفيس بعد انكساره في بلوزة ولكنّه عجز عن الحؤول دون سقوط المدينة. وثبّت قمبيز بساماتيك الثالث على رأس الحكومة، ولكنّ العاهل المصريّ ما لبث أن حاول القيام بثورة ضدّ الفاتحين، ولما فشل لجأ إلى الانتحار.

تتألّف السلالة السابعة والعشرون من ملوك فارسيين، أوّلهم قمبيز الذي انجز فتح مصر وربما خفّف من وطأة النهب والسلب التي كان الجيش الفارسيّ يُرزح البلاد تحتها، ثم داريوس الذي استعاد تقاليد الملوك الأصليّين واشاد هيكلاً في الخارجة ونظّم استثمار مصر الاقتصاديّ (وقد أنجز فتح قناة بحر الأحمر الذي باشر به نخو). ويبدو أنّ المصريّين لم يتحمّلوا بصبر نير الفرس. وحوالي سنة ٤٨٦ حاولوا

القيام بثورة في الدلتا . وتوفّي داريوس قبل أن يتمكّن من قمعها، ولكنّ خليفته أحشويروش قضى عليها بسهولة . ولم ييأس المصريّون ونشبت ثورة جديدة في أيّام ارتحششتا بقيادة الزعيم الليبيّ ايناروس، واميرنا أمير سائيس . وكان أسطول أثينيّ يساند الثائرين . وبفضل مساندة اليونانيين قهر المصريون الجيش الفارسيّ الذي لجأ إلى منفيس . لكنّ هذا النصر كان قصير الأمد . وبعد ثمانية عشر شهراً استأنف الفرس القتال وكسروا المصريّين . وأعدم ايناروس وأُرغم الأثينيّون على الانسحاب، لكنّ أميرنا استطاع أن يبقى في الدلتا ولم يتمكن داريوس الثاني من إعادة الهدوء إلاّ باتّخاذه موقفاً متسامحاً مع المصريّين .

٩. السلالات الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون ونهاية استقلال مصر (٤٠٥ – ٣٤١ ق.م.) –

على الرغم من هذا الموقف الذي اتّخذه المرزبان الفارسيّ في مصر لم يتخلّ المصريّون عن الكفاح. وقاد الثورة الّتي نشبت سنة ٤١٠ ابن اميرنا ثائر سنة ٤٦٠ او حفيده الذي كان يحمل اسم جدّه، وكان هو أيضاً أميرسائيس وحفيد فراعنة السلالة السادسة والعشرين . وورث منهم حقوقاً بالعرش لا يستهان بها . ولا نعرف شيئاً عن تفاصيل كفاح أميرنا ضدّ الفرس سوى أنه بعد ستّ سنوات من القتال أصبحت مصر في سنة ٤٠٤ متحررة من جديد .

ولا تتألف السلالة الثامنة والعشرون سوى من فرعون واحد هو مؤسسها، ولا نعرف عنه سوى أنه بعد أن حرّر مصر حكم البلاد بأسرها . ويبدو أنّ الفتوحات الاجنبيّة وضعت على الأقلّ حدّاً للفوضى المزمنة التي كانت تقسم مصر .

وبخلاف السلالة الثامنة والعشرين فإن السلالة التاسعة والعشرين التي خلفتها ضمّت أربعة فراعنة : انّ أصل مؤسّسها نفرتيس الأوّل (٣٩٨ — ٣٩٢) هو من منديس في الدلتا . وقد ركّز، كما ركّز اسلافه فراعنة السلالة السادسة والعشرين، سلطته على صداقة اليونانيين وعقد تحالفاً مع إسبارتة . ولا نعرف إلاّ القليل عن ملكه الذي كان قصيراً جدّاً . وجدّد خلفه أخوريس الأوّل (٣٩٢ — ٣٨٠) نشاطه السياسيّ في آسيا واشترك بتحالف ضدّ الفرس لم يكن النصر حليفه، غير أن اخوريس توصّل بفضل المرتزقة اليونانيين إلى تجنّب غزو جديد لمصر . ولا نعرف عن خليفتيه بساموتيس ونفرتيس الثاني سوى نشوب ثورات داخلية، وأن الأخير خلعه أمير سيبينيتوس الذي أسّس السلالة الثلاثين .

إنّ السلالة الثلاثين هي آخر سلالة وطنيّة مستقلة . والمرجّح أنّ مؤسّسها نختنابو الأوّل (٣٧٨ — ٣٦٠) قد استولى على الحكم باستناده إلى كهنة سائيس إذ يظهر أنّه

خلافاً لأسلافه المباشرين تخلّى عن مساعدة اليونانيين في بداية حكمه على الأقل . وبفضل تضافر ظروف موآتية وهفوات أعدائه تمكّن من منع الفرس من إعادة احتلال مصر مع أنهم كانوا قد توغّلوا حتى ضواحي منفيس . وكان نختابو الأوّل بنّاء كبيراً وأعاد بناء هياكل عدّة تشهد بذوقه السليم . أمّا ابنه تاوس (٣٦١ – ٣٥٩) فقد اشترك بالحكم منذ حياة أبيه . وتمشياً مع عادة كانت قد أصبحت سنة لا مفر منها ، ولإنّ المصريّين لم تبق لهم القوة الكافية للصمود في وجه آسيا منفردين ، سعى تاوس إلى محالفة اليونانيين بعد أن كان بأوه قد تخلّى عنهم . وبفضل المشاة السبارتيين والمرتزقة الأثينيين الذين استخدمهم ، اصبح جيشه قويّاً جدّاً ، فدفع به بحملة إلى آسيا . لكنّه بعد أن أحرز انتصارات باهرة في بادئ الأمر ، نشب شقاق في الجيش وخان تاوس أخوه الذي كان قد بقي في مصر . ولم يعد أمام تاوس سوى الفرار واللجوء إلى ملك الفرس ، بينما اغتصب الملك ابن اخيه نختنابو الثاني .

ولم يكد نختنابو الثاني (٣٥٩ – ٣٤١) يتبوّأ العرش حتى رأى نفسه يواجه عصياناً شعبياً انطلق على ما يبدو من ناحية منديس ، ولربما كان قد حرّض عليه أحد أحفاد ملوك السلالة التاسعة والعشرين . ولم يتمكّن نختنابو من القضاء على هذا العصيان إلا بمساعدة اليونانيين . وبنى نختنابو هياكل عدّة وأعاد بناء هياكل أخرى . لكنّ مصر لم تنعم طويلا بالهدوء الذي أعاده إليها .

١٠. السيطرة الفارسيّة الثانية (٣٤١ – ٣٣٣ ق. م.) – في آسيا كان ملك الفرس الجديد أرتحشستا الثالث اوخوس مصمّماً على استعادة مصر. فجهّز جيشاً قويّاً وهاجم به مصر منذ سنة ٣٥١. وكان نختنابو قد عيّن على الجيش المصري ضبّاطاً من المرتزقة السبارتيين واليونانيين الذين توصّلوا في بادئ الأمر إلى ردّ جيش ارتحشستا اوخوس. لكنّ هذا الاخير لم يلبث أن عاد يستعد للغزو، وفي سنة ٣٤١ هجم من البر ومن البحر بوسائل تعتبر كبيرة جدّاً في ذلك الزمن. (انزل ارتحشستا اكثر من ثلاثمائة الف رجل وثلاثمائة مركب ثلاثيّ المقاذيف الى القتال بينما لم يكن لدى نختنابو سوى مئة ألف رجل). ولم تكف هذه المرة شجاعة المرتزقة اليونانيين لصدّ الجيش الفارسيّ. فسقطت منفيس بسرعة، واضطرّ نختنابو إلى الفرار إلى مصر العليا حيث تمكّن من الصمود فيها سنتين، لكنّ حملة فارسيّة ثانية أكملت فتح مصر بأسرها، ولسنا نعرف كيف انتهى نختنابو آخر ملك مصريّ مستقل.

١١. نهاية السيطرة الفارسيّة الثانية وفتح الإسكندر – إننا لا نعرف عن السيطرة الفارسيّة الثانية القصيرة الامد (لم تستمرّ سوى تسع سنوات) بقدر ما نعرف عن السيطرة الاولى. ويبدو أنّ البلاد وسكانها قد قاسوا آلاما كثيرة خلال احتلال جنود ارتحشستا أوخوس وخليفتيه ارسيس وداريوس الثالث كدمان. لذلك لا نستغرب نشوب ثورات عدة،

أهمها ثورة كبّاش أمير الدلتا الذي اتّخذ اللقب الملكي وتوصّل إلى البقاء بضعة أعوام في ناحية منفيس دون ان يوفّق في تحرير مصر. وسيأتي الخلاص من اليونانيين، ففي سنة ٣٣٣ هزم الإسكندر داريوس الثالث كدمان في ايسوس ودخل الفاتح الكبير مصر دخول المحررين.

ينتهي تاريخ مصر الخاصّ بالفتح المكدوني. سيتولى مصيرها ملوك يونانيون ثم ملوك رومانيّون ولن يكون بعد ذلك فراعنة ابداً. ولم يكن فتح الإسكندر أمراً عارضاً، فالتوازن الجديد للقوى الراهنة جعله أمراً محتّماً كما حتّم الفتح الرومانيّ، وأصبحت مصر جزءاً لا يتجزأ من عالم البحر المتوسط الذي لم يشأ ولم يستطع ان يهمله؛ ولربّما كان بإمكانها، وهي قويّة وفتيّة، أن تحتفظ باستقلالها باستنادها إلى أراضيها الإفريقية؛ ولكننا رأينا أنّ السلالات الوطنيّة الأخيرة لم تستطع بعث القوة المصرية القديمة، ولم تتوصّل إلى اطالة وجودها إلا باعتمادها على القوّات اليونانية. وهذا ما يفسّر نوعاً كيف أنّ مصر لم تقبل راضيةً فتح الإسكندر فحسب بل كيف أنّها تخلّت عن كل صفاتها الأصليّة، واعتنقت المدنية اليونانية بتلك السهولة. ولم يبق القليل من روح الاستقلال سوى في بلاد طيبة حول معبد أمون المركز الديني. ومن هناك ستنطلق الثورات النادرة ضدّ الملوك الأجانب. غير أنّه لم يكن لهذه الثورات أيّ أثر، إذ أنّ المدنيّة المصرية قد ماتت.

النتيجة

لقد استعرضنا بسرعة كبيرة أهمّ الأحداث في التاريخ المصري . وشهدنا بعد حقبة تكوين طويلة ومجهولة من نواح عديدة تفتّح مدنيّة فريدة في نوعها . وبعد هذه الحقبة من الاكتمال رأينا الفوضى الداخليّة تهدم رويداً رويداً التماسك الداخليّ للمملكة المصرية، الذي كان عنوان كلّ قوتها ؛ وقد بحثنا عن أسباب هذا الانحطاط الطويل، فرأينا أن بعضها كان مرجعه لشكل البلاد الجغرافيّ، وأنّ بعضها الآخر نتج عن التطوّر التاريخيّ للمدنيّات التي كانت تحيط بمصر . ومن الممكن أن تكون عوامل أخرى اشدّ عمقاً، عوامل لا تخضع للتفكير المنظّم، قد تضافرت فوق هذه الأسباب الماديّة الصرف . إنّ مشكلة انقراض المدنيات يضاهي من نواح عدة سر موت الأفراد . إن مصر كانت قد تغلّبت على غزو الهكسوس والغزو الآشوريّ، وكانت قد توصّلت بصعوبة وبمساهمة الأجانب إلى التخلّص من الفرس . فمن كان يمكنه أن يتصوّر أنّ ظهور الإسكندر في مصر كان كافياً لتتخلّى عن شخصيّتها وتصبح يونانيّة ؟ ويبدو أنّ الاعياء كان قد استولى على المصريّين . وهنا تمرّ بذهننا الاناشيد المريرة التي كان يتغنّى بها المصريّون في ولائمهم :

« منذ الأزل تمرّ الأجسام، وتحلّ محلّها الأجيال الجديدة.
تُشرق الشمس في الصباح وتغيب في المغرب ، ينجب الرجال
وتحمل النساء ويتنفس المرء بملء رئتيه . ثمّ يطلع النهار
فإذا باولادهم أصبحوا في القبور . لقد سمعت أقوال حكماء
الماضي . ماذا حل بمنازلهم ؟ انهارت الجدران وانقرضت
البيوت وكأنها لم تكن . لا يعود أحد من حيث ذهبوا ليخبرنا
عن أحوالهم . افعل ما يطيب لك على الأرض حتّى يوم
الممات ، فإله الموت لا يسمع النحيب ولا ينجّي العويل
أحداً من العالم الآخر . اقضِ يومك بالفرح . حقّاً ليس
بوسع أحد أن يأخذ أمواله معه . حقاً لن يقدر ان يعود احد
من الذين ذهبوا إلى هناك » .

فهرس

القسم الاول

مصر في الزمان والمكان

القسم الثاني

تاريخ مصر

صدر حتى الآن

في مجموعة «ماذا أعرف» ؟ العربية

١ نشأة البشرية
٢ كتاب فرنسة اليوم
٣ اصول الحياة
٤ المدنيات القديمة في الشرق الادنى
٥ دماغ الانسان
٦ الشخصانية
٧ الاعلام
٨ الفلسفة الفرنسية
٩ الكون
١٠ السيبرنتية
١١ العلاقات الانسانية
١٢ اللغة والفكر
١٣ الارادة
١٤ الماركسية
١٥ مصر القديمة
١٦ النمو الاقتصادي
١٧ التحليل النفسي
١٨ الاسلام
١٩ علم الاجتماع السياسي
٢٠ النفط
٢١ علم نفس الولد
٢٢ تاريخ الصحافة
٢٣ الوراثة الانسانية
٢٤ من الذرة الى النجم
٢٥ الديانات
٢٦ الموسيقى العربية
٢٧ الذاكرة
٢٨ علم المصريات
٢٩ الذكاء
٣٠ الرأسمالية
٣١ الفلسفة الوسيطية ...
٣٢ الاشتراكية
٣٣ الشمس والارض
٣٤ المناهج في علم النفس
٣٥ الفلسفة القديمة
٣٦ البوذية
٣٧ فلسفات الهند
٣٨ سوسيولوجية الثورات
٣٩ العقل
~~٤٠ المخيلة~~
٤١ فيزيولوجية الوجدان
٤٢ كانط والقانطية
٤٣ الظاهرتية
٤٤ اللاوعي
٤٥ الدولارات الأوربية
٤٦ الديغولية
٤٧ البيولوجية الانسانية

المطبعة البولسية — جونية ١٩٧٩

La présente série de la Collection « Que Sais-je » a été réalisée grâce à l'appui des Sociétés suivantes :

AIR FRANCE

COMPAGNIE FRANÇAISE DES PÉTROLES

BANQUE NATIONALE DE PARIS

SOCIÉTÉ GÉNÉRALE

ENTREPRISE DUMEZ

UNION DES BANQUES ARABES ET FRANÇAISES

et avec l'aide du

DÉPARTEMENT DES RELATIONS CULTURELLES

•

أسهمت في نشر هذه السلسلة من مجموعة « مـــاذا أعرف » الشركات التالية :

شركة الطيران الفرنسية

شركة الزيوت الفرنسية

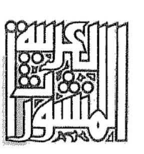
مصرف باريس الوطني

الشركة العـــامة

شركة دومـــيز

إتحاد المصارف العربية والفرنسية

وبمساعدة وزارة العلاقات الثقافية .




05579639